

نُورٌ مَا قَبْلَ الرَّحِيلِ

نُورٌ مَا قَبْلَ الرَّحِيلِ

مجموعة قصصية

الميرزا علي المسعودي

الإهداء

إلى الذين سبقونا إلى الله

أيها الشهداء... يا من غادرتم الأرض، ولم تغادروا القلوب؛ أكتب إليكم الآن، ويدي ترتجف، لا خوفاً من الموت، بل خجلاً من أسمائكم التي تسكننا أكبر من أن نطيقها

لنا منكم مقاعد فارغة، وصور معلقة على الجدران، وضحكات نسمعها في لحظات الحنين، ففتلفت، ثم نتذكر... أنكم رحلتُم، وتركتُم فينا وجعاً جميلاً لا يشبه إلا الكرامة

علّمتمونا أن الوطن ليس حدوداً على الخريطة، بل نبضاً في القلب، ودماً يسري في العروق. وأن الحياة ليست عدداً من السنوات، بل أثراً لا ينطفئ، وموقفاً لا يُنسى

كيف ننام والسماء تحمل أسماءكم؟ وكيف نفرح وذاكرة الأرض ما زالت مبللة بدمائكم؟ لكننا لا نحزن كما يحزن اليانسون؛ نحزن كما يحزن الذين حملوا الأمانة، وعرفوا أن الطريق طويل، وأن الثمن عظيم

يا من كتبتم بأرواحكم سطوراً في جبين المجد... لستم امواتاً . أنتم في كل فجر يولد، وفي كل راية تُرفع، وفي كل طفل يسأل: مَنْ هؤلاء الذين لا ينساهم أحد؟

.سلامٌ على أرواحكم الطاهرة، سلامٌ على أسماءكم التي لا تغيب .
.سنكمل الطريق... متعبين، مجروحين، لكننا لا نعود
.وسنقول للعالم: هؤلاء هم الذين علّمونا أن الحرية عقيدة، وأن الشهادة حياةٌ من نوع آخر

الشهيد السيد علي جواد الخامنئي

نظارةٌ بخمسةِ تومان -1

كان الصبيُّ يجلسُ في الصفِّ الثالث، في مدرسةٍ قديمةٍ في مشهد، ويحدِّقُ في السبورةِ كمن ينظرُ إلى ضباب. الحروفُ تتراقصُ، تفترقُ ثم تتلاصقُ، فيرفعُ يدهُ بترددٍ ويسألُ المعلمَ أن يُعيد. ضحكُ بعضِ التلاميذ. لم يضحكُ هو. لأنَّه لم يكن يعرفُ أنَّ العالمَ يُرى بوضوح، وأنَّ ما يراه هو ليس العالم

:في البيت، كان يقرأ الكتابَ فيضغطهُ على عينيه حتى تؤلمهُ. سألتُهُ أمُّه مرّة

«مالك يا ولدي؟»

«قال: «لا أرى جيّداً

:فحملته إلى طبيب. جلسَ الطبيبُ، وأدارَ أمامَ عينيه عدساتٍ صغيرة، ثم رفعَ رأسه وقال

«تحتاجُ نظارة. درجة 1.75»

«سألتِ الأمُّ بصوتٍ خافت: «وبكم؟»

«قال الطبيب: «ستة عشر تومانا»

صمتت. ستة عشر تومانا كانت في ذلك الزمان ثمنَ شهرٍ من الخبزِ والزيت. عادا إلى البيت، ولم يتكلما. مرَّ يومٌ، ومرَّ شهرٌ، ومرَّ عامٌ كاملٌ وهو يرى السبورة سرابًا. كان يخجلُ من ضعفه، ويتعلَّم من ذاكرته بدلَ عينيه، ويحفظُ من شفاهِ المعلمِ بدلَ الحروفِ.

بعد سنة، أصرَّ على أمه. لم يبك ولم يصرخ، لكنَّهُ ظلَّ يطلبُها بصوتٍ صغيرٍ حتى لَانَ قلبُها. جمعتُ من هنا قرشًا ومن هناك قرشًا، حتى أمنتُ له ستة عشر تومانا. حملها في يدهِ إلى الطبيب، وقلبهُ يخفقُ كعصفور

.لبسَ النظارة. ثم نظر. ثم عبس

.الدنيا لم تكن واضحة. كانت غائمة، ثقيلة، كأنها تحت مطر

«قال الطبيب: «الدرجةُ تغيّرت. نظرك الآن 2.75»

«قال الصبي: «وبكم تُبدّل العدسة؟»

«قال الطبيب: «بمالٍ آخر

لم يكن هناك مالٌ آخر. فبقي على نظارةٍ لا تنفعه، يرى بها أضعفَ ممّا يرى، لكنَّهُ لبسها لعلّها تشفّقُ عليه. وبقيَ عامًا آخر، وربما أكثر، على تلك الحال

ثم في يومٍ، كان يمشي في الطريق المؤدّي إلى مسجدِ گوهرشاد. كان الطريقُ يعرفه، وكانت خطواته تعرفُ الطريق. توقّفَ أمامَ محلٍّ صغيرٍ لبيعِ النظارات، وجلسَ يتأمّلُ المحتوياتِ كما يتأمّلُ فقيرٌ واجهةَ مخبز

:قال صاحبُ المحلّ

«هل تريدُ نظارة يا أخي؟»

«قال الفتى بتردد: «هل عندك ما يناسبني؟»

«ابتسم الرجلُ وقال: «هذه النظارات. اختر ما يناسبك

مَدَّ يَدَهُ، وَأَخَذَ وَاحِدَةً. لَبَسَهَا. وَنَظَرَ.

حِينَ نَظَرَ، كَادَ يَبْكِي. رَأَى الْوَجُوهَ، وَرَأَى الْحُرُوفَ، وَرَأَى السَّمَاءَ. رَأَى الدُّنْيَا كَأَنَّهَا وُلِدَتْ أَمَامَهُ لِلتَّوَلَّى. تَفَاجَأَ،
«وَسَأَلَ عَنِ الثَّمَنِ. قَالَ الرَّجُلُ: «خَمْسَةُ تُومَانٍ»

دَفَعَ، وَحَمَلَهَا كَأَنَّهُ يَحْمِلُ عَيْنِيهِ

. بَعْدَ زَمَنِ عَرَفَ أَنَّ دَرَجَةَ تِلْكَ الْعَدْسَةِ كَانَتْ 3.5

كَبِيرٌ. وَمَرَّتِ السَّنُونَ. وَضَعَفَ الْبَصَرُ مِنْ جَدِيدٍ حَتَّى لَمْ تَعُدْ تِلْكَ النِّظَارَةُ تُنْفَعُهُ وَهُوَ فِي الْعَشْرِينَ. زَارَ الطَّبِيبَ،
«فَقَالَ: «نَظَرْتُكَ أَرْبَعَ دَرَجَاتٍ

وَفِي الرَّابِعَةِ وَالْعَشْرِينَ مِنْ عَمَرِهِ، سَنَةً ثَلَاثَةً وَسِتِّينَ ، جَاءَ الْإِعْتِقَالُ. أَخَذُوا النِّظَارَةَ مِنْ وَجْهِهِ. أَخَذُوا
الْعَدْسَاتِ الصَّغِيرَةَ الَّتِي كَانَتْ عَيْنِيهِ الْوَحِيدَتَيْنِ عَلَى الدُّنْيَا. وَسَجَنُوهُ

وَفِي الزَّنْزَانَةِ، عَادَ الضُّبَابُ. وَعَادَتِ الْحُرُوفُ إِلَى التَّرَاقُصِ. وَازْدَادَ الضَّعْفُ حَتَّى صَارَ 5 دَرَجَاتٍ

لَكِنَّهُ لَمْ يَفْقِدِ الْبَصَرَ الْحَقِيقِيَّ. لِأَنَّ مِنْ اعْتَادَ أَنْ يَرَى بِعَقْلِهِ حِينَ أُغْلِقَتْ عَيْنَاهُ، لَنْ يَعْصِيَ أَبَدًا

الْمَنْبِرُ الَّذِي لَمْ يَصْمِتْ-2

فِي صَبَاحٍ مِنْ أَيَّامٍ مُحَرَّمٍ، كَانَتْ مَدِينَةُ قَمٍّ تُطْبِقُ عَلَى جَرْحٍ لَمْ يَجِفْ بَعْدَ. كَانُوا قَدْ اقْتَحَمُوا الْمَدْرَسَةَ الْفَيْضِيَّةَ،
وَأَنهَالُوا عَلَى الْعِمَانِمِ بِالْهَرَاوَاتِ، وَدَنَسُوا الْمَصَاحِفَ بِالْأَحْذِيَّةِ، وَسَقَطَ طَالِبٌ شَهِيدًا، وَجُرِحَ آخَرُونَ. وَفِي
بَيْتٍ هَادِيٍّ، كَانَ الْإِمَامُ الْخَمِينِي يُصْغِي إِلَى الْأَنْبَاءِ بِصَمْتٍ ثَقِيلٍ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَنَظَرَ إِلَى أَحَدِ طَلَبَتِهِ، شَابًا فِي
الرَّبْعِ وَالْعَشْرُونَ مِنْ عَمَرِهِ، اسْمُهُ عَلِيٌّ

«قَالَ: «أَذْهَبْ إِلَى بِيرْجَنْدٍ

«سَأَلَ الْفَتَى: «وَلِمَاذَا بِيرْجَنْدٍ يَا سَيِّدِي؟

قَالَ الْإِمَامُ: «لَأَنَّهَا مَسْقُطُ رَأْسِ رَئِيسِ الْوُزَرَاءِ. الرِّسَالَةُ يَجِبُ أَنْ تُطْرَقَ حَيْثُ يَسْمَعُهَا مَنْ يَظُنُّ أَنَّهُ فِي
«مَأْمَنٍ»

فِي الرَّابِعِ وَالْعَشْرِينَ مِنْ أَيَّارٍ، عَامَ ثَلَاثَةٍ وَسِتِّينَ وَتِسْعِمِئَةٍ وَأَلْفٍ، وَصَلَ الشَّابُّ إِلَى بِيرْجَنْدٍ. كَانَ ذَلِكَ الْيَوْمُ
الثَّانِي مِنْ مُحَرَّمٍ. نَزَلَ فِي مَدْرَسَةِ طَلَبَةِ الْعُلُومِ الدِّينِيَّةِ، غُرْفَةً صَغِيرَةً بِفَرَاشٍ خَشِنٍ وَنَافِذَةٍ تُطَّلُّ عَلَى صَحْرَاءٍ
مِنَ الصَّمْتِ

فِي الصَّبَاحِ، كَانَ يَخْرُجُ إِلَى الْبُيُوتِ. فِي الْمَسَاءِ، كَانَ يَصْعَدُ الْمَنَابِرَ فِي الْمَسَاجِدِ وَالتَّكَايَا وَالْحُسَيْنِيَّاتِ. كَانَ
يُحَدِّثُ النَّاسَ عَنِ الْفَيْضِيَّةِ، عَنِ الطَّلَبَةِ الَّذِينَ سُحِقُوا، عَنِ الْمَصْحَفِ الَّذِي أَهَيْنَ. وَكَانَتِ الْعَيُونُ تَذْرِفُ،
وَالْأَيْدِي تَرْتَجِفُ، وَالْقُلُوبُ تَنْقَبِضُ كَأَنَّهَا رَأَتْ الْجَرْحَ بِعَيْنِهَا

ثم جاء اليوم السابع من محرّم

كان المسجد والمصلّى الكبير في بيرجند قد امتلأ عن آخره. جلس الناس على الأرض، ووقف بعضهم في الأروقة، وتدلّى آخرون من النوافذ. صعد الشاب المنبر. كان هذا أول منبر في حياته. نظر إلى الوجوه، وابتلع ريقه، ثم تكلم

قال: «أيها الناس، في قم، في المدرسة الفيضية، دخل رجال الشاه على طلبة يقرؤون القرآن، فضربوهم، وسحلوهم، وأراقوا دم أحدهم على الأرض، ومزقوا المصحف الذي كان بين أيديهم

10:18. سكّت المسجد. سكّت سكوت المقابر

». ثم قال: «وكان أستاذي هناك. وكان الطلبة هناك. وأنا كنت واحدا منهم

هنا، انكسر الصمت. بكى الناس. بكى الرجال بكاء أطفال. بكى الشيوخ، ووضعت النساء أيديهن على وجوههن، وارتفع النحيب حتى خيل أن المسجد نفسه يبكي

. كانت تلك أول خطبة يخطبها في حياته. لم يعرف أنها ستكتب في السجلات

في التاسع من محرّم، كان جالسا في غرفته، يُعقب صلاة الصبح. كان التسبيح مبلولا بالدموع، والدعاء يخرج من قلب لم ينم. سمع وقع خطوات. دخل رجل في ثياب مدنية، ونظر إليه نظرة لا تعتذر

». قال: «تفضّل معي إلى مركز الأمن

:رفع الشاب رأسه ببطء. لم يتغيّر فيه شيء. سأل

«أنت مأمورٌ بإبلاغي باعتقالي؟»

». قال الرجل: «أنا مأمورٌ باعتقالك

صمت الفتى لحظة. ثم قام، وصلى ركعتين. لم تكن صلاة خوف، كانت صلاة استخارة. كان يطلب من الله أن يرشده في عاقبة هذا الطريق

خرج من الغرفة. كان الطلبة واقفين في الممر، على وجوههم ملامح الخوف والانكسار، كأنهم يرون شمسًا تسحب من سمانهم. أمّا هو، فكان ثابتًا، مستقيم الظهر، لم تضعفه يد ولم ترعبه عين

وفي الطريق، كان يقرأ في قلبه. كان يستخير الله منة مرة. منة استخارة في فم لا يتوقف عن الحركة. لم يكن يسأل عن النجاة، بل عن الصدق

. وصل إلى مركز الشرطة. جلس أمام المحقق. ساعات طويلة من الأسئلة والأصوات والورق

«قال المحقق: «ماذا قلتَ على المنبر؟

قال: «تحدّثتُ عن المدرسةِ الفيضيّة، وعن الفاجعةِ التي حدثت فيها. لأنّني واحدٌ من طلبتها، وأردتُ أن يعرفَ الناسُ أيضًا ما جرى مع الطلبة

بدأ الضابطُ يلينُ شيئًا فشيئًا. قال

«أنصحك. عدّني ألاّ تتحدّثَ بأمورٍ كهذه مجدّدًا، وعندها أطلقُ سراحك»

«قال الفتى: «لا أستطيعُ أن أعدَ بأمرٍ كهذا

«قال الضابط: «إن لم تعدني، سأضطرُّ إلى التشديدِ معك، لأنّني مأمورٌ بذلك

قال الفتى بهدوءٍ لا يُشبه هدوءَ السجون

«وأنا أيضًا مأمورٌ بأن أتحدّثَ بهذه الأمور»

«قال الضابط: «ومن أمركَ بذلك؟

«قال: «اللهُ أمرني بذلك

سكتَ الضابط. نظرَ إلى هذا الشابِ الذي لا يزالُ في أوّلِ العمر، ثمّ تأثّرَ تأثّرًا لم يستطع إخفاءه. قال

«هذا العملُ خطرٌ وكثيرُ المشاكل، وأنت ما زلتَ شابًا»

: قال السيد

«لا أظنُّ أنّه توجدُ عقوبةٌ أكثرُ من الإعدام. ليس لديكم أكثرُ من الإعدام. وأنا هيأتُ نفسي للإعدام»

تعجّبَ الضابط. لم يجدْ ما يقوله. فسكتَ

وفي النهاية، أطلقَ سراحه، بشرطٍ واحد: أن لا يصعدَ المنبر، وأن لا يخطب

خرجَ إلى الشارع. كانت بيرجند تحتضنُ الغروب. نظرَ إلى السماء، وأخذَ نفسًا طويلًا، وعرفَ أنّ هذا أوّلُ اعتقالٍ في حياته، وأنّه لن يكونَ الأخير

ليلة تسبّخ في الدم -3

كانت السماء تُطَبّقُ على المدينة كقبضة من حديد، والريخُ تعوي بين الأزقة كذنبه جريحة. في ذلك البيت المتواضع، حيث تتشابك رائحة الخبز بالدعاء، كان السيدُ جالسًا بين أطفاله الثلاثة، يغزلُ لهم من الحكايات ما يُدفئ القلب في برد الزمن.

...لكن الهدوء كان خدعةً

فجأةً، انفجرت الأبواب كأن زلزالاً هبّ من الجحيم. اقتحم رجالُ السافاك المكانَ كقطعانٍ مسعورة، وأحاطوا بالسيد قبل أن ينهض. انهالوا عليه ضرباً وشتماً، فتحوّل البيتُ إلى ساحةٍ تعذيب، والصرخاتُ تتصاعدُ كدخانٍ أسود.

كان السيدُ يتلقى الضربات بصبرٍ مُرعب، لكن عينيه لم تفارقاً أطفاله. وفجأةً، همس لزوجته بصوتٍ مبجوح:

"أخرجي الصغير... لا تدعيه يرى"

لكنّ أحد الجلادين التقط الطفلَ قبل أن تتحرك، ورماه أمام والده كقربانٍ مُهان. صرخ الطفلُ، فانتفض قلبُ الأب كطائرٍ مذبح.

...ثم جاءت اللحظة الأقسى

مدّوا السيدَ وسطَ الغرفة، وفتح أحدهم قبضة سلاح "عوزي" الإسرائيلي، وبدأ يهوي به على ساقيه وجسده. كان الصوتُ كوقع المطارق على جسدٍ واحد، ولأوجاع تختلط بالدم على السجادة. كانت الزوجة تحاول أن تتقدم، لكنّ الأيدي الغليظة كانت تردّها. كانت عاجزة، كعصفورةٍ محبوسةٍ خلف قضبانٍ من نار.

والسجادة... كانت تسبّخ في الدم. كلُّ قطرةٍ كانت تروي حكايةً صمودٍ، وكلُّ ضربةٍ كانت تشعلُ جمرةً في قلوبٍ من يسمع.

كانت الساعةُ ثقيلةً، كأنّ الزمنَ توقفَ ليشهد. كانت زوجةُ السيد تُمسك يدَ طفلها الصغير، وترتجف، لكنّها لم تُكسر. كانت تعلمُ أنّ هذه الليلة ليست نهايةً، بل بداية حكايةٍ سترُوى لأجيال.

وفي تلك اللحظة، رفع السيدُ عينيه إلى السماء، ولم تكن الضرباتُ قد أنهكته بقدرٍ ما أنهكه ألمُ الأطفال. همس بصوتٍ يكاد يُسمع:

"اللهم... اجعل هذا في سبيلك"

وأغمضَ عينيه. لم يكن يستسلم، بل كان يزرعُ في قلبِ الظلامِ بذرةَ نورٍ.

توقفَ الجلادون، وهم يلهثون. نظروا إلى الرجلِ الملقى على الأرض، وإلى الدمِ الذي غطى المكان، فشعروا بشيءٍ غريب: ليس شفقة، بل خوف. خافوا من رجلٍ لم تنكسر روحه

.خرجوا كالكلاب، وتركوا البيتَ يبكي

:أما الزوجة، فزحفت نحوه، ووضعت رأسه في حضنها. كانت الدماءُ تلتطخ ثوبها، لكنها لم تبال. همست

"أنت حيّ... أنت حيّ"

:وابتسم السيدُ، رغم الجراح، وقال

"الطفل... هل رأى شيئاً؟"

:أجابت بصوتٍ مختنقٍ

"لا... أغمضتُ عينيه"

.لكنها كانت تكذب. الطفلُ رأى كلَّ شيء. ورأى شيئاً آخر: رأى أباه لا ينكسر

.وفي تلك الليلة، لم يكن البيتُ قد دُمّر... بل وُلدَ فيه رجالٌ لا يعرفون الخوف

فيا سيوفُ خذيني -4

في فجرٍ من شتاءٍ طويل، كانت المدينةُ تتنفسُ بصعوبة. الأخبارُ تتساقطُ مثل الرماد. وفي غرفةٍ صغيرة، كان السيدُ يجلسُ أمام المصحف. لم يكن وجهه وجهَ رجلٍ ينتظرُ الموت، بل وجهَ رجلٍ يعرفُ أن الحياةَ عارية، وأن الحقَّ لا يموت

:دخلَ عليه علي لاريجاني. كان وجهه شاحباً، ويداه ترتجفان. جلسَ. صمتَ لحظة. ثم قال بصوتٍ خافت

«سماحة السيد، معلومات مؤكدة: مخطط لاغتيالك»

:رفعَ السيدُ رأسه. لم يتغيرَ فيه شيء. كأنه كان ينتظرُ هذه الكلمة منذ سنين. قال بهدوء

«إن كان دين محمد لم يستقم إلا بقتلي فيا سيوف خذيني»

حاول لاريجاني أن يقتعه

«ننقلك، ونخرج العائلة»

أجاب السيد بثبات

«لا. الحياة طبيعية، والعائلة تبقى»

كانت هذه الكلمات خمساً وعشرين كلمة، لكنها حملت ثقلًا يهدم الجبال. خرج لاريجاني. في الخارج، كان الحراس يتبادلون نظرات القلق. قال أحدهم: ماذا قال؟ قال لاريجاني: قال إن الحياة تستمر. ثم أضاف: وطلب أن يكون البرنامج اليومي كما هو. صلاة الجماعة في وقتها. اللقاءات في موعدها. لا تغيير

حاول المسؤولون مرارًا. قالوا: سماحة السيد، نطلب منك فقط الانتقال إلى مكان آمن. ابتسم. قال: إذا انتقلت، فمن يبقى للناس؟ قالوا: نخرج العائلة على الأقل. هز رأسه. قال: العائلة ليست استثناء. إذا خرجت، فمعنى ذلك أننا نخاف. وأنا لا أخاف إلا الله

في تلك الليلة، اجتمع أبناؤه حوله. كانت زوجته صامته. قالت ابنته: نحن قلقون. نظر إليها بحنان. قال: يا بني، الموت ليس نهاية من كان على حق. الحسين خرج بأهله. لم يخف. ونحن على دربه

في الصباح، تناول السحور ثم صلى صلاة الفجر. ثم خرج إلى الشرفة. كانت الشمس تشرق. نظر إلى الأزقة. إلى الباعة. إلى الأطفال. إلى العجائز. قال: انظروا. الحياة تستمر. هذا انتصارنا

في الأيام التالية، لم يغير شيئًا. لم يزد حراسًا. لم ينصب دروعًا. لم يهرب. كان يمر في الممرات، يبتسم للموظفين. يسأل عن عائلاتهم. يقرأ القرآن. يصلي الليل

في إحدى الليالي، جاءه لاريجاني مرة أخرى. قال: التحذيرات تتزايد. قال السيد: وأنا أتزايد إيمانًا. قال لاريجاني: نحن نخاف عليك. قال: لا تخافوا. من كان مع الله، فالله معه. ثم أضاف: اذهب واطمئن الناس. قل لهم إن السيد بينهم. لا يختبئ

في صباح اليوم الأخير، استيقظ باكراً. توضأ. صلى. قرأ دعاء. ثم جلس يكتب. كتب ورقة صغيرة. طواها. وضعها في جيبه. لم يخبر أحداً بما فيها

بعد ساعات، اهتزت الأرض. جاء الصاروخ. تصاعد الدخان. سقط السيد. لكن وجهه بقي مشرقاً. حين «فتحوا جيبه، وجدوا الورقة. كان فيها: «إن كان دين محمد لم يستقم إلا بقتلي فيا سيوف خذيني»

حمل الناس جسده. لم يبكوا كثيراً. لأنهم تذكروا وصيته: ابكوا على الحق إن انكسر، لا على من مات من أجل الحق

دفنوه وديعة . لكنّ صوته لم يُدفن. بقي في الفجر. في الأذان. في صلاة الليل. في كلّ قلبٍ رفضَ الخوف . وهكذا، لم يمِتَ السيد. لأنّه لم يعيش لنفسه. عاشَ للحق. وماتَ للحق. وبقي الحق

الشهيد السيد حسن نصرالله

طنين لا ينتهي -1

في ذلك المساء، كانت بيروت تتنفس بصعوبة. الساعة تشير إلى ما بعد السادسة، حين بدأ الطنين طنين صغير، حميم، كأنه همس جهاز في جيب. ثم انفجر الهمس. في الأسواق، في السيارات، في البيوت، في أيدي الرجال. 17 سبتمبر 2024. يوم لا يشبه أي يوم

وصل الخبر إلى السيد حسن نصرالله كصاعقة. لم يكن في غرفة عمليات، بل في غرفة صغيرة، أمام شاشة. شاهد الفيديوهات: رجل يسقط على وجهه، آخر يمسك يده المبتورة، طفل يصرخ قرب دراجة، سيارة تشتعل. 45 شهيداً. 2200 جريح. أرقام تتقدّم كطابور جنائزي

تغيّر وجهه. تلك الملامح التي اعتادت أن تحمل ثقل الجبال، انكسر فيها شيء. صار شخصاً آخر. لم يعد يرفع عينيه عن الشاشة. توقّف عن الكلام. قطع الطعام. 24 ساعة، لم يدخل فمه لقمة. كانوا بالكاد يناولونه الماء، فيشرب رشفة كمن يبلع حجراً

عند منتصف الليل، حصل اتصال بين الحاج وفيق صفا. وسماحة السيد

يا سيد، كيف حالك ؟ –

مش منيح –

يا سيد، يجب أن تأكل. ولو لقمة –

كيف أكل يا حاج وفيق؟ كيف؟ –

- مش ذنبك –
مش ذنبي؟ هؤلاء اينائي . كانوا بالأسواق، وبالبيوت ، وبسياراتهم . الجهاز الي كان بيحميمهم صار –
قاتلهم. عم شوف وجوههم بكل مكان . وعم اسمع الطنين باذنية . طنين لا يتوقف
يا سيد، المقاومة تحتاجك. الناس تحتاج قلبك –
قلبي؟ قلبي انكسر يا وفيق. شفت بعيوني ايد صغيرة عم تتقطع. شفت شاب يحمل خيو . 2200 جريح. –
2200 عائلة. 45 شهيداً. كل شهيد الو باب بقلبي
نحن بحرب. والعدو ما يرحم –
نعم، بس احنا بشر . شو عبالك جالس بس لا انا جالس أعدّ الأسماء. أعرف بعضهم. البعض منهم عم –
يقول: يا سيد، ادعوا لنا. كيف أدعو لهم وانا مش قادر احميهم؟
مافي حدى يقدر يحمي كل شيء. لكنك تعرف الطريق. الدم لا يذهب هدرأ –
ما تقول الدم ما يذهب هدرأ. الدم دم. والوجع وجع. بدي أفهم كيف صار جهاز صغير إلى مقبرة. كيف –
صار الطنين نهاية العالم
راح نفهم . ونحاسب. بس بلأول اكل شي –
لا ما بقدر –
يا سيد، مشانهم. مشان الي ماتو . مشان البقية. اذا انت طحت ، بنطيح كلنا –
أنا ما بطيح . بس في أشياء جواتي انكسر –
راح يرجع . باول نفس. مع أول لقمة. مع أول دمعة –
دموعي؟ من ساعات وأنا أمنعها. بخاف إن بكيت ما أتوقف –
ابكي يا سيد. فالبكاء مش ضعفاً. لكن ما تترك الطعام. لا تتركنا –
أتركني ارتاح شوي يا وفيق. أريد ابقى لحالي . مع الأسماء –
اذا الي خاطر عندك. اشرب هاد الماء. مشاني –
خلص عشائك راح اشرب ؟ –
ومن أجل 45 روحاً. ومن أجل 2200 جريح –
خلص راح اشرب –

رفع السيد الكأس بيد مرتجفة، شرب. ثم نظر إلى الشاشة. كانت الفيديوهات قد توقفت، لكن الطنين بقي.
طنين في الغرفة، في صدره، في بيروت. قال بصوت خافت

. غلق الهاتف وفيق. وبقي السيد في الغرفة. وحده ، مع 45 شهيداً، و2200 جريح، وطنين لا ينتهي

ربع ليرة-2

في صباح سنة 1968، كان حسن نصرالله في الصف الثالث ابتدائي. قبل أن يخرج، مدّ يده الصغيرة إلى والده. وضع الأب في كفه ربع ليرة، وقال: «هاد مصروفك، اشتري الي بدكيا». قبض حسن القطعة

المعدنية بحرارة، كأنها سرّ. كان يعرف أن ربع ليرة تستطيع أن تشتري خبزاً، أو حلوى، أو قلم رصاص. لكنه كان يعرف أيضاً أن في الصف أصحاباً لا يجدون شيئاً

«بعد المدرسة، عاد. سأله والده: «شو اشتريت؟

». قال حسن بهدوء: «اشتريت وخلص

لم يزد. نظر الأب إلى وجه ابنه، فلم يقرأ فيه جوعاً ولا شراء. صمت. وفي داخله سؤال

«بعد أيام، جاء صديقه محمد. سأله الأب: «حسن وين ببصرف مصروفه؟

تردد محمد، ثم قال: «يوزّعه على رفقاتو. يقول: ببي عندو دكان، وحالتنا منيحا. وهدول رفقاتي ما عندهم

سكت الأب. شعر أن ربع ليرة صارت جبلاً

: في زاوية الحارة، جلس حسن ومحمد على عتبة. قال محمد

«ليش بتعطي مصروفك؟ وانت ما تشتري شي»

«ابتسم حسن: «لأنكن رفقاتي واخواتي

«بس انت ب جوع»

«جوع ساعة، عادي. بس بشوف رفقاتي بلا يأكل مش زابطة معي»

«بيك راح يعرف»

«بي كثير طيب. وازا عرف، راح يعصب شوي وبعدها يسامحني»

«ليش ما تظم الربع ليرة لنفسك؟»

«لأن الربع ليرة عندي تصير خبز. وعندهم بتصير فرح. وهل شي حلو عندي»

«بس لساتك صغير»

«الصغير بعمره، مش بقلبو»

«واذا ما بقى عندي شي؟»

«يبقى معي لما شوفهم يضحكو. وهل شي يكفيني»

سمعهما الأب من النافذة. لم يخرج. مسح دمعة، ثم ابتسم. في المساء، وضع في كفّ حسن ربع ليرة أخرى

وقال:

«خذ. هاي لك، هاي لرفقاتك»

«رفع حسن عينيه: «عرفت؟

«عرفت أن ابني أغنى مني»

«ما تعصب»

«أنا ما بعصب. بس ما اتخلي نفسك جوعان»

«اني ما بجوع. اني بشارك»

«ومن وين تعلمت هاد؟»

«أنت. بتقول إن الدكان رزق، والرزق ما يتخبى»

في تلك الليلة، نام حسن قرير العين. لم يكن يملك إلا ربع ليرة، لكنه كان يملك قلباً يتسع لرفاقه. وهكذا، من

عتبة صغيرة في حارة فقيرة، تعلم أن العطاء ليس ما يتبقى من المصروف، بل ما نمحه حين لا نملك إلا

القليل

حين تحدّث الابن -3

كانت الشمس تنهوى نحو مغيبها، ورياح الجنوب تحملُ عقبَ الزيتون وأصداء الخطى المتعبة، حين قرعَ صديقُه الباب وقال: "لازم نطلع للبلدة، صهري متوقّي، ولازم نقدّم واجب العزاء

في منطقة البازورية، في قضاء صور، حيث تتشابكُ الأيدي على الأفراح والأتراح، خرج السيد عبد الكريم نصر الله مع وجهاء المنطقة والمختار والشيخ، في موكبٍ من الوقار والصمت. كانت الطرقات تعرفُ أبناءها، والحجارة تحفظُ خطوات العابرين. وصلوا إلى دار العزاء، حيث تجمع الناسُ كسنابلٍ حقلٍ في يومٍ حصاد، يتبادلون المواساة بكلماتٍ خفيفة

جلس السيد عبد الكريم بين الحاضرين، مطأطئ الرأس كعادته في مجالس العزاء. وفجأة، ارتفع صوتُ الشيخ قائلاً: "هذا الطالب حسن نصر الله سوف يخطب بكلمة العزاء

تجمّدت الدماء في عروق الأب. رفع رأسه ببطء، كمن يخرجُ من حلمٍ ثقيل. حسن؟ ابنه؟ الفتى الذي كان يراه كلّ صباحٍ يحملُ كتبه ويمضي إلى المدرسة، الفتى الذي كان يجلسُ في زاوية البيت يقرأ ويقرأ... أهذا هو؟

تقدّم الفتى نحو المنبر بخطواتٍ ثابتة، كأنه يمشي على أرضٍ يعرفها جيداً. كان وجهه يلمعُ بنورٍ غريب، وصوته حين انطلقَ كان كجدولٍ يفيضُ على حجارة القلوب

"...إنّ الموت ليس نهاية الطريق، بل بداية حقيقةٍ كنا عنها غافلين"

ساعة كاملة مرّت كأنها لحظات. تحدّث عن السياسة والدين، عن العلم والدينا، عن الآخرة والحياة. كان كلامه كالمطر على أرضٍ عطشى، والحاضرون يتأرجحون بين الذهول والخشوع. لم يكن خطيباً يقرأ من ورقة، بل كان كمن يتنفس الحقيقة

حين أنهى، ساد صمتٌ ثقيل، ثم قام الشيخ عبد اللطيف بري، وبنبرة يملؤها التأثر قال: "لا داعي لأيّ خطيب أن يعتلي هذا المنبر بعد ما أن عبر هذا الفتى ما فيه الكفاية

سكت الكل. لم يجد أحدٌ كلمة تُقال. وفي زاوية المجلس، كان السيد عبد الكريم ينظرُ إلى ابنه نظرةً من اكتشف كنزاً في بيته ولم يعلم. دموعٌ حارقة لم يذرفها، لكنها تجمّعت في صدره كبحيرة لا شاطئ لها

من كلماته في تلك الليلة

أيها الحاضرون، إننا نعيشُ في زمنٍ يبحثُ فيه الناسُ عن القادة، وما علموا أن القائد يبدأ من رحم الألم، "وينبت كشجرة زيتونٍ في أرضٍ لا تعرف الاستسلام

في تلك الليلة، عاد الأب إلى البيت صامتاً. وحين دخل غرفته، نظر إلى المصحف الذي كان ابنه يقرأ فيه، ثم إلى الحبر الذي كانت أصابعه تلمسه. ابتسم بحزن جميل، وقال لنفسه: "هكذا يولد الرجال... في مجالس العزاء، حين تتحدث القلوب قبل الألسنة، ويصبح الفتى صوتاً لأمة تنتظر صوتها

نام السيد عبد الكريم تلك الليلة نوم من حمل أمانة ثقيلة، وعلم أن الطريق طويلة، وأن الفتى الذي أطل من منبر العزاء، سيكبر في وعي الناس، وسيبقى صوته يرن في أزقة الجنوب، كصدى لا يعرف الرحيل

الشهيد السيد هاشم صفي الدين

البندقية التي سبقت الشهادة - 1

في صيف من عام ١٩٧٨، كانت الشمس في الجنوب لا ترحم أحداً. كان عمرنا خمسة عشر عاماً، وأكفنا صغيرة على الغصون الكبيرة. كنا نعمل في البساتين، نجمع البرتقال والليمون، ونُدخِر قروشاً معدودة في جيوب ممزقة، بينما كانت أصوات المدافع تأتي من بعيدٍ كرعٍ لا يمطر

لم يكن ذاك الصيف صيفاً عادياً. كانت الحدود تنزف، والقرى تتساقط كأوراق خريف على مهل. وكنا نحن — فتياناً بأسنان لم تكتمل بعد — نجلس بعد العمل تحت شجرة توتٍ عتيقة، نتحدث عن العدو، وعن الأرض، وعن وطنٍ يبتلع أبناءه

في أحد الأيام، جلس السيد هاشم صفي الدين بيننا. كان وجهه هادئاً كأنه لا يعرف الخوف. نظر إلينا نظرة «طويلة، ثم قال كلمة غيرت مسار حياتنا: «لازم نشترى سلاح

، ثقيلة G3 جمعنا المال. قطرة قطرة. من عرق الجبين وحرّ الظهيرة. واشترينا أول بندقية. كانت من نوع على كتف فتى في الخامسة عشرة، لكنها كانت أخف من العجز الذي كان يسكننا. حين لمستها بيدي، شعرت أنني لم أعد ذلك الفتى الذي يجمع البرتقال، بل صرت شيئاً آخر. شيئاً يشبه الرجال الذين يموتون واقفين

تحت شجرة تحدث مع سماحة السيد

«قلت له: «يا سيد هاشم، نحن لساتنا فتیان ، والبندقية وحدة . كيف نواجه هل الجيش؟

أجابني بصوتٍ يملؤه الهدوء: «ابو علي، العدو ما يقاتل الفتیان ولا الشيوخ، هو يقاتل الإرادة الي جواتنا . همه يريدو لبنان بلا سيادة، وأرضاً بلا أهلها ، وقلوب باردة . بس ما يعرفو أن هل الأرض اذا بتحط حجر على حجر تصير جبال ، وان الفتیان اذا اجتمعوا على الحق بيصيرو جيش ، نسيت شو قال الله بالقران ،

«إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى

«قلتُ: «وازا ستشهدان ؟

«قال: «الي استشهد على هاي الأرض، ما يموت. مجرد سبق الآخرين إلى الشهادة

سكتنا طويلاً. كنتُ أنظرُ إلى البندقية، وإلى وجهه الذي كان يُشبه الفجرَ في ليلةٍ طويلة. وحين انصرف، حملتُ سلاحي ومشيتُ، وفي قلبي شيءٌ لا يُسمّى: لا خوفٌ، ولا فرحٌ، بل شيءٌ بينهما، كأنني وُلدتُ من جديد على أرضٍ تعرفُ أسماءَ أبنائها

من تلك الليلة، صار الطريقُ إلى الحدود يعرفُ خطانا. كنّا نجعلُ الحلمَ سلاحاً، والعمرَ وقوداً، حتى صارت تلك البندقيةُ الصغيرةُ أولَ حرفٍ في كتابٍ لم ينتهِ بعد. وما زلتُ أتذكّرُ قولَ الله عز وجل لما قالوا السيد هاشم: «إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى.» وكنا ذلك السيل... الذي لا يعودُ إلى منبعه

احفروا قبرين -2

في مجّمع سيد الشهداء، كان التراب مبللاً بدموع الحافرين. كان الأخوة يعدّون قبراً للسيد حسن نصرالله، قرب المكان الذي أحبّه، بين الناس، في قلب الضاحية التي كانت تسمّيه «أبا هادي». لم يكن أحد يتخيّل أن الأرض التي احتضنت كل هؤلاء الشهداء، ستحتاج اليوم إلى حفرة جديدة، وإلى صمتٍ أكبر من كل الكلام

كان الحاج حسين نمر، مسؤول منطقة البقاع، جالساً قرب السيد هاشم صفي الدين . كان يحبس دمه، ويقول لنفسه: «نحن رجال، والرجال لا يسقطون». لكنه كان يسقط من داخله، حجراً حجراً

في تلك اللحظة، اتصل السيد هاشم . كان صوته هادئاً كعادته، لكنه كان يحمل ثقلاً غريباً، كأن الجبال كلها وُضعت على كتفيه

«قال السيد هاشم: «فلان ، شو عم تعملوا؟

«قال فلان: «سيدنا، عم نجهّز القبر السيد

:سكت السيد هاشم لحظة، ثم قال بصوتٍ مكسور

«احفروا قبرين»

«تجمّد فلان وقال: «قبرين؟ لمن الثاني يا سيدنا؟

«أجاب السيد هاشم: «لي. لا أريد أن أعيش بعد سماحة السيد

:اغلق الهاتف . وكان الهواء توقف. قال الحاج حسين بصوتٍ مرتجف

«سيدنا، نحن بحاجة. الحزب بحاجة. القضية بحاجة»

قال السيد هاشم: «وأنا بحاجة إلى من كان يحمل عني نصف الطريق. يا حسين، أنا ما فقدت قائداً فقط.

فقدت أخي، ورفيقي، وصديقي، وقدوتي. فقدت من كان يقول لي: تقدم يا هاشم، ولا تخف. كيف أتقدم الآن «وحيدي؟»

قال الحاج حسين: «سيدنا، السيد حسن ما رحل. هو في كل مكان، في كل صوت، في كل دمعة، في كل بندقية»

قال السيد هاشم: «لكنني لم أعد أسمع صوته. لم أعد أرى وجهه. كنت أذهب إليه فيصغي إليّ كأنني الدنيا «كلها. الآن، من يصغي لي؟»

بكى الحاج حسين. لم يستطع أن يخفي دموعه. قال

«سيدنا، نحن كلنا اخوتك. ونحن سنحمل عنك، كما حملت عنا»

قال السيد هاشم: «احفروا القبرين. وإذا جاء دوري، ضعوني قريبه. أنا لم أفارقه في الحياة، ولن أفارقه في الموت»

نفذ الإخوة طلب السيد، وحين رفعوا التراب، كانوا يعلمون أنهم لا يحفرون قبراً فقط، بل يحفرون فصلاً من حزن كبير، ووصية من رجل لم يعد يريد الدنيا بعد أن أخذت منه أعز ما عنده. وفي تلك الليلة، نام الحاج حسين على وسادة من دموعه، يتذكر وجه السيد حسن، وصوت السيد هاشم وهو يقول «لا أريد أن أعيش بعد حسن»

ثمانية عشر يوماً -3

في ليلة الثالث من تشرين الأول، عام ٢٠٢٤، لم تكن السماء فوق الضاحية كسائر الليالي. كانت تنفس دخاناً، وتطبق على الأرض كصدر ضيق. في تلك الليلة، سقطت الصواريخ على مقر السيد هاشم صفي الدين. ولم تكن بمستوى ما ألقى على منشأة السيد حسن نصر الله؛ كان حجم الدمار أقل، والثقوب في جسد الأرض أصغر. ومن هذه الفجوة الصغيرة، ولد رجاء كبير: ربما... ربما هو حي

قال وفيق صفا: في الليلة نفسها حاولنا. أرسلنا فرق الدفاع المدني، ودققنا في كل ثانية، وقلنا: إذا وصلنا مبكرين، ربما نخرجه. لكن إسرائيل كانت تعرف ما نريد. كانت تراقب الطرقات كعين لا تنام. وكل سيارة تقترب، كانت تقصف قبل أن تصل. لم يكن الأمر حصاراً على مكان، بل حصاراً على أمل

ثمانية عشر يوماً ونحن نطرق كل باب. توسطنا الأمم المتحدة، توسطنا اليونيفيل، توسطنا الدولة اللبنانية والجيش اللبناني والمؤسسات الأممية. أرسلنا رسائل ونداءات، ووقفنا على الحواجز ننتظر جواباً. لكن الإسرائيلي كان يرفض. يرفض لأنه كان يعتقد أن هناك احتمالاً أن يكون السيد هاشم على قيد الحياة. كان يخشى أن يخرج من تحت الركام واقفاً، فيصير الحجر الذي يبني أمة

كل من تقدم لفحص المكان، كان يستهدف. سقط شهداء ونحن نحاول أن نستطلع، أن نرى، أن نلمس حجراً واحداً من ذلك المبنى. كان الموت يقف على باب المكان حارساً، لا يسمح لأحد بالدخول، ولا بالخروج

ثمانية عشر يوماً والسيد هاشم هناك. لا نعرفُ عنه شيئاً. لا صوت، لا خبر، لا صورة. فقط صمتٌ ثقيل،
وصواريخٌ لا تنتهي، ومسيراتٌ تحومُ كعقاربٍ ساعةٍ لا تدلُّ إلا على الحزن

وفي اليوم الثامن عشر، قرّر الإسرائيلي أخيراً. لم يعد يخاف. اعتبر أن السيد هاشم قد مات. فسمح للفرق
أن تنزل.

نزلت فرق الدفاع المدني. نزلت بأقدامٍ ترتجف، وقلوبٍ تُصلي. حفروا بين الحجارة والحديد المحروق.
ووجدوه.

كان سماحة السيد هاشم مستشهداً من اللحظة الأولى. من تلك الليلة التي انفجرت فيها الصواريخ. لم
ينتظرنا ثمانية عشر يوماً. لم يسمع صوتنا ونحن نطرقُ الأبواب من أجله. مضى في اللحظة نفسها، بهدوءٍ
يشبه هدوءه في الحياة، ووجهه يشبه الفجر الذي كان يعرفه

وقفنا. لم نبك بصوتٍ عالٍ. بكينا بصمتٍ يشبه صمتَ تلك الليالي الثمانية عشر. قلنا لأنفسنا: كنّا نحاولُ أن
نُنقذه، وكان هو قد سبقنا. كنّا نفاوضُ العالم من أجله، وكان قد فاضَ الله من أجلنا

ثمانية عشر يوماً لم تكن يوماً من عمر الزمن، بل كانت عمراً كاملاً من الانتظار والعجز. ودرساً قاسياً في
أنّ الأعداء لا يمنعون الوصولَ إلى مكان، بل يمنعون الوصولَ إلى يقين. وأنّ بعض الرجال لا ينتظرون أن
يُنقذهم، لأنهم مضوا من حيث لا رجعة، وتركوا لنا الطريقَ لتُكمله وحدنا

مضى السيد هاشم. مضى قريباً من السيد حسن، كما أراد. وترك لنا ثمانية عشر يوماً، نُحدّثُ بها الأجيال،
عن رجلٍ حاصره العدو حتى في موته، ولم يستطع أن يحاصره في قلوبنا

الشهيد الجنرال قاسم سليمان

زهرة التوليب -1

في صباح مشمس من أيام خراسان ، حيث تتنفس الجدران الحجرية عبق التاريخ، وكانت رائحة الزعفران تتسلل من شرفات المنازل القديمة، وقف الحاج قاسم سليمان أمام باب منزل متواضع في إحدى ضواحي المدينة. كان المنزل يقطنه أسرة شهيد أفغاني من أبطال لواء فاطميون، أولئك الذين تركوا ديارهم خلف جبال هندوكوش ليدافعوا عن حرم السيدة زينب عليها السلام.

دخل الحاج قاسم، وقد انحنى قامته عند عتبة الباب احتراماً لبית الشهيد. جلس مع أم الشهيد التي تحدثت عن ابنها البار، وعن حلمه الذي تحقق في سبيل الدفاع عن المقدسات. كانت دموعها تنهمر، لكنها دموع فخر لا حزن، دموع من تعرف أن ابنها ارتقى إلى أعلى عليين.

في زاوية الغرفة، كانت تجلس طفلة صغيرة لا تتجاوز السابعة من عمرها، ترتدي ثوباً بسيطاً، عيناها الواسعتان تشبهان بحيرتين صافيتين، لكن في أعماقهما أثر من حزن دفين. كانت تمسك بدمية بالية، وتنظر إلى الحاج قاسم نظرات تجمع بين الخوف والفضول، وكأنها تحاول أن تفهم لماذا يأتي هذا الرجال الكبار إلى منزلها دائماً، ولماذا لا يعود أبوها معهم؟

عندما هم الحاج قاسم بالمغادرة، همس في أذن مرافقه: "توقفوا عند أول محل ورود". خرج الجميع، لكنه عاد بعد دقائق، يحمل بين يديه باقة ورد حمراء من زهرة التوليب ، كان يقطر منها ندى الصباح كأنه دموع السماء.

دخل بها، وتوجه نحو الطفلة، وجثا على ركبتيه أمامها حتى صار في مستوى نظرها. مدّ لها الباقة وقال بصوته الخفيض الذي يمتزج فيه الحزم بالحنو: "هذه لك يا صغيرتي... أرجوك لا تحزني. والدك في الجنة". "الآن، وهو يراك ويفرح بك". غمغم قائلاً: "سامحيني إذا أطلت الغياب عنك

جلست الطفلة تتمتعن الورود، ثم رفعت عينيها إليه وابتسمت ابتسامة خجولة، كأنها أول شمس تشرق بعد ليل طويل. غادر بعد أن رأى البسمة تستقر على شفتيها، والتفت إلى مرافقيه قائلاً: "إدخال السرور على". قلب ابن الشهيد يعادل أجر العبادة والجهاد

كانت تلك الباقة مجرد أزهار، لكنها حملت في طياتها كل معاني التقدير والعرفان، رسالة من قائد عرف كيف يجعل من اللحظة العابرة أثراً لا يمحي في قلب يتيم، وكيف أن المواقف الصغيرة قد تكتب في سجل

العظمة أكبر من بطولات المعارك

رسالة من قلب المعركة -2

في تلك الليلة التي كانت تضج بأزيز الرصاص ودوي الانفجارات، حين تحولت شوارع البوكمال إلى متاهات من الدخان واللهب، كان منزل صغير على مشارف المدينة يقف صامداً كشاهد على تناقضات هذه الحياة. لم يكن صاحبه يعلم أن مقاتلاً من بلاد بعيدة سيختار بيته ملجأً مؤقتاً لقيادة معركة مصيرية

دخل قاسم سليمان ومرافقوه ذلك المنزل الخالي، وقد حملوا معهم خرائط المعركة وهمس الأوامر. كانت جدرانها المتواضعة تسمع الآن أصواتاً لا تشبه ضحكات الأطفال ولا دندنة الأمهات، بل همسات القادة ونقرات أجهزة الاتصال. وفي زاويته، كان المصباح الخافت يضيء وجوهاً تعلوها علامات التعب والإصرار.

وفي خضم تلك الفوضى، بينما كانت خرائط المدينة تنتشر على الأرض كأوراق الخريف، وخلال تبادل الأوامر وتحديث المواقع، وجد سليمان نفسه للحظة وحيداً مع نفسه. كان الصراخ والرصاص في الخارج، لكنه هنا، في هذه الغرفة البسيطة، شعر بثقل المسؤولية ليس فقط تجاه المعركة، بل تجاه روح هذا البيت الذي احتضنهم.

أخرج قلمه من جيب سترته العسكرية، ومد يده نحو قطعة من الورق كانت مرمية على الطاولة. في تلك اللحظة، بدا القائد الذي اعتاد إصدار الأوامر الحاسمة كتلميذ يكتب اعتذاره لأستاذه. بدأ يكتب بخط يده: الواضح باللغة العربية، وكأن كل حرف كان يحمل صوتاً من ضميره

بسم الله الرحمن الرحيم
ايتها العائلة العزيزة والمحترمة، السلام عليكم انا اخوكم الفقير، واسمي قاسم سليمان، وانتم تعرفونني "يقينا

انا، ونحن، خدمنا اهل السنة كثيرا في كل العالم. انا شيعي وانتم سنة. ولكنني بطريقة او بأخرى انا ايضا سني لأننا نحن نعتقد بسنة رسول الله (ص) ونسعى ان شاء الله ان نسلك طريقه. وانت من جهة اخرى شيعي، لأنك تحب اهل البيت عليهم السلام. لقد عرفت من خلال القرآن الكريم وصحيح البخاري والكتب الاخرى الموجودة في بيتكم انك او انكم متدينون

اولا : نعتذر ونرجوكم ان تتقبلوا عذرا اذ اننا استعملنا بيتكم دون اذنكم
ثانيا : اي ضرر لحق بالمنزل نحن مستعدون بأن ندفع ثمن ذلك. لقد استخرنا الله بالقرآن الكريم عنا وعنكم، وكان جواب الاستخارة الآيات المباركة من سورة الفرقان ص 361 و362..ارجوكم ان تقرأوها وان تفكروا بحالكم كما تفكرنا بحالنا

انا صليت في بيتكم، وصليت ركعتين على نيتكم وطلبت من الله سبحانه وتعالى عاقبة الخير لكم. نحتاج الى دعائكم ابنكم او اخوكم سليمان اذا كنتم تعتقدون اننا، او انني، مديونون لكم لاستعمالنا منزلكم دون اذنكم،

هذا رقم هاتفي في إيران،
”أرجو منكم أن تتواصلوا معي، وأنا مستعد لأي شيء تريدونه. رقم هاتف المنزل0098

كانت كلماته بسيطة لكنها حملت ثقلًا لا يقل عن أوامر المعركة. وفي تلك اللحظة، لم يكن يكتب لمجرد صاحب المنزل، بل كان يكتب رسالة إلى العالم بأسره، أن في قلب الحرب قد تنبت بذور الإنسانية، وأنه حتى في أشد لحظات القسوة، يمكن للرجل أن يظل وفياً لأخلاقه

عندما غادروا قبل الفجر، بقي الورق على الطاولة مثل سرٍ محفوظ. وجد صاحب المنزل الرسالة بعد أيام، حين عاد إلى بيته الذي نجا من القصف. وقف هناك يقرأ الكلمات، وفي عينيه دموع لا تعرف إن كانت فرحاً بعودة السلام، أم دهشة من هذا التناقض العجيب: في بيت دمرته الحرب، وجد رسالة تعيد بناء الثقة بالإنسانية

تلك الورقة الصغيرة، التي حملت اعتذاراً ورقم هاتف، أصبحت رمزاً يتجاوز المعركة. إنها شهادة أن الإنسان، حتى في أحلك الظروف، يحمل في أعماقه بذرة الخير، وأن الأخلاق ليست رفاهية في أوقات السلم، بل هي الضوء الذي يبقينا بشراً عندما تحاول الحرب أن تسلب منا إنسانيتنا

ربما لم يتصل صاحب المنزل يوماً، لكن الرسالة بقيت في قلبه، تذكيراً بأن حتى في زمن الرصاص، يمكن للكلمات أن تكون أقوى من كل الأسلحة، وأن الاحترام لا يسقط مع المدن، بل يبقى شامخاً كالجدران التي تصمد أمام العواصف

صوت في قلب الغياب -3

كانت الحرب تأخذ منه كل شيء، تخطف وقته، تنهك جسده، تغرق أيامه في خرائط الحرب والمناورة. لكنها لم تستطع يوماً أن تسرق منه تلك الدقائق القليلة التي كان يخصصها لهاتفه، ينتظر أن يرد الطرف الآخر بصوت شابه لم تتجاوز الخمس والعشرين، صوت فاطمة بنت عماد

في تلك الليلة الباردة من شتاء 2009، كان قاسم سليمان قد أنهى للتو اجتماعاً عسكرياً طويلاً في دمشق، حين التقط هاتفه كما يفعل كل ثلاثاء، تماماً كالساعة. كانت عيناه المتعبتان تبحثان عن رقم حفظه عن ظهر قلب، ليس لأنه قائد، بل لأنه أبّ. آخر ليتامى صديقه

"ألو، فاطمة؟"

"من الطرف الآخر، جاء صوتها كزقزقة عصفور حاولت أن تخفي حزناً اعتادت العيش معه. "عمي قاسم... كيف حالك؟"

ابتسم، رغم أن لا أحد يراه. كان ذلك الصوت كافياً لينزع عنه عبء المعارك لبرهة. "أنا بخير يا بنيتي. كيف كانت الامتحانات؟ كيف أخوك حسين؟"

بدأت تروي له تفاصيل يومها، كيف راجعت دروسها، كيف كان أخوها الصغير يبكي كل ليلة لأنه لا يجد والده يحمله إلى فراشه. سمع سليمان تلك الكلمات فشعر بغصة في حلقه، كتلك التي يشعر بها عندما يرى جندياً يسقط في المعركة، لكنها هذه المرة كانت غصة من نوع آخر

عمي قاسم... "توقفت فاطمة، ويبدو أنها كانت تحبس دموعها. "أتعلم ماذا قالت لي صديقتي في الجامعة اليوم؟ قالت إن "

"والدي كان إرهابياً. فضحكتُ في وجهها، لكنني حين عدت إلى البيت... بكيت كثيراً

صمت سليمان للحظات. في تلك الثواني، لم يكن قائداً يحارب تنظيمًا متطرفاً، بل رجلاً يواجه ألم شابه تسأل عن صورة والدها في عيون الآخرين. تنفس بعمق، ثم أجابها بصوت فيه حنان لم يعرفه منه إلا المقربون

اسمعيني يا فاطمة. والدك لم يكن إرهابياً. كان رجلاً حمل السلاح دفاعاً عن أرضه وعن الناس الذين لا صوت لهم. الناس "قد لا يفهمون ذلك، لكن الله يعلم، وأنت تعلمين، وأنا أعلم. وهل يكفي أن يعلم الله ونحن ثلاثة لنكون على حق؟

بتسمت فاطمة، ابتسامة صغيرة كسرت جليد الحوار. "عمي قاسم... أتذكر عندما جاء والدي إلى البيت ذات يوم، وكان يحمل لي دمية بعض الأشياء المفيدة للجامعة، وقال لي إنك أنت من أرسلت بها معه

ابتسم سليمان، وتذكر تلك المواد التي اشتراها من سوق في طهران، واضعاً فيها ورقة صغيرة كتب عليها: "لفاطمة، من عمها الذي يحبها". لم تخبره فاطمة يوماً أنها ما زالت تحتفظ بتلك الورقة بين صفحات كتابها المفضل

اعلمي يا فاطمة أن الحياة ليست سهلة، وأن فقدان الأب شيء لا يعوضه أحد. لكنني هنا، كلما احتجتني. لست بديلاً عن "والدك، لكنني قريب منك دائماً. هل وعدتُ بشيء ولم أفِ به؟

"أبدأ يا عمي. أنت الوحيد الذي لم يخلف وعداً"

نهض سليمان من مقعده، ونظر من النافذة إلى شوارع دمشق المظلمة. كانت الساعة تشير إلى منتصف الليل، وكان في انتظاره اجتماع آخر عن العمليات في الجنوب. لكنه لم ينه المكالمة

فاطمة... حين تنضجين وتقرنين التاريخ، لا تسمحين لأحد أن يكتب لك كيف تفكرين. والدك كان بطلاً في عيني، وسيظل "بطلاً في عين كل من يعرف الحقيقة. وأنت، أنت فخر له. الآن، أذهبي إلى النوم، وغداً سأتصل لأسمع عن امتحانات. اتفقنا؟

"اتفقنا يا عمي"

أغلقت المكالمة، وبقي سليمان واقفاً هناك، والهاتف في يده. في تلك اللحظة، لم يكن يفكر في خرائط المعركة القادمة، بل كان يفكر في فتاة شابه تنام الآن وقلبها يحمل جرحاً لا تلتئم حوافه، لكنه كان يعرف أن بضع دقائق من الاهتمام كل أسبوع، كفيلة بأن تجعل ذلك الجرح أقل إيلاًماً، كفيلة بأن تعيد للأب غيابه في حياة ابنته، بطريقة لا يفهمها إلا من عرف معنى أن تكون أبا في زمن الرصاص

ورقة الإخلاء-1

في أحد أحياء بغداد القديمة، حيث تتنفس الجدران ذكريات الشهداء، اعتاد حسن أن يطرق أبواب العائلات التي دفعت أغلى ثمن للوطن. كان شاباً في الثالثة والعشرين، يحمل في جعبته ابتسامة دافئة وكيساً من التمر، وفي قلبه إيمان راسخ بأن زيارة عوائل الشهداء ليست عملاً تطوعياً، بل واجباً مقدساً

في ذلك المساء، كان الغبار الخفيف يرقص في ضوء المصابيح المتعثرة، عندما وصل حسن إلى منزل الحاج صبري. لكن ما رآه هناك جعله يتجمد في مكانه: كانت زوجة الشهيد واقفة عند الباب، وفي يدها ورقة رسمية ترتجف بين أناملها المرتعشة. ورقة إخلاء

بلدية السيدة تطلب منا مغادرة المنزل"، قالت بصوتٍ مبجوح بالدموع

اشتعلت النيران في دم حسن. كيف يُطرد شهيد من منزله؟ كيف يُنزع سقف عن عائلته بعد أن أنزله الله شهيداً؟ عاد إلى بيته، وفتح هاتفه، وبدأ يكتب. كلماته كانت كالصواريخ، تتهم الحكومة والمسؤولين، وتندد بالتقصير، وتنشر الغضب كالنار في الهشيم

لم يمر اليوم التالي حتى وصل الخبر إلى الحاج أبو مهدي المهندس

أريد لقاء العائلة"، قال الرجل بصوته الهادئ الذي يخفي خلفه عزيمة الجبال

في صباح اليوم التالي، وقف حسن أمام باب مكتب الحاج، ينتظر بصحبة عائلة الشهيد صبري. لكنه فوجئ بوصول عائلة أخرى، لم يعرفها من قبل. رجل كبير في السن، وامرأة تمسك بصورة ابنها الذي يرتدي زي الشرطة الاتحادية

"اقترب حسن من الرجل وسأله بهدوء: "عمي، أنتم أيضاً وصلتكم ورقة إخلاء؟

". "أوما الرجل بصمت، ثم أضاف: "ابننا شهيد، لكنه ليس من الحشد

تسلل الخوف إلى قلب حسن. ماذا سيقول الحاج عندما يعلم أن هذه العائلة ليست من أبناء الحشد؟ كيف سيفرق بين الشهداء؟

دخلوا جميعاً، وجلسوا أمام الرجل الوقور الذي كانت ملامحه تحمل وقار القادة ووداعة الآباء. سأل الحاج عن أحوالهم، واستمع إلى قصصهم بصبر. ثم التفت إلى أبي الشهيد الثاني وسأله بحنان: "عمي، ابنك في أي جهة كان؟

"نظر الرجل إلى الأرض، ثم رفع رأسه بكل شجاعة: "حجينا، ابننا مو بالحشد... بس إحنا إجينا وياهم بعد

ساد الصمت للحظة. نظر الحاج أبو مهدي إلى الرجل، ثم إلى زوجته، وإلى حسن الذي كان يتمنى أن تبتلعه الأرض. لكن ما قاله الحاج كان كالصاعقة التي هزت قلوب الجميع

"عمي... ابنك ابننا. وين ما يكون، أنتم بذمتنا وهي أمانة"

الكلمات البسيطة سقطت كالطرر على قلوب جافة. بكى الجميع، بكى حسن، بكى الشيوخ، بكى النساء. في تلك اللحظة، لم يعد هناك حشد ولا شرطة ولا انتماءات. كان هناك فقط شهداء وعوائلهم، وكان هناك وطن واحد يجمعهم

وبعد أيام، اتصل الحاج أبو مهدي بحسن

"تعال يا بني"

وصل حسن إلى المكتب، وهناك وجد حقيبة ثقيلة. فتحها الحاج، وإذا بها أموال متراصة

مليون دينار"، قال الحاج بهدوء. "ثمن شراء منازل لعوائل الشهداء. اذهب وابحث لهم عن بيوت 149". يستقرون فيها، بيوت تليق بهم وبدماء أبنائهم

نظر حسن إلى المال، ثم إلى عيني الحاج الملينتين بالعزم والمحبة. أدرك في تلك اللحظة أن العدالة ليست شعارات تطلق، ولا بوسطات تنشر، ولا اتهامات توجه. العدالة هي أن تكون أفعالك أصدق من كلماتك، وأن تكون يدك المبسوطة أقوى من لسانك الملهوب

غادر حسن المكتب، والحقيبة في يده، وقلبه يعرف الآن معنى القيادة الحقيقية. قيادة لا تفرق بين شهيد وآخر، ولا تنسى وعداً قطعه، ولا تترك عائلة في العراق بعد أن تركت فلذة كبدها في ساحات الشرف

أما بيت الشهيد صبري فاشتراه حسن، وبيت الشهيد الآخر أيضاً. وفي كل زاوية من تلك البيوت الجديدة، كانت صور الشهداء تبتسم، وكأنها تقول لأهلها: "ألم نقل لكم إن دمنا ليس أرخص من غيره؟ ألم نقل لكم إن هذا الوطن يستحق؟"

ومنذ ذلك اليوم، صار حسن يعرف أن البطولات الحقيقية لا تكتب في المنشورات، بل تُسطر في القلوب التي لا تنسى، وفي الأيادي التي تمتد لتبني، وفي القرارات التي تمسح الدموع قبل أن تجف

وبقيت قصة الحاج أبو مهدي وعوائل الشهداء تتناقلها الأجيال، تذكيراً بأن الوطن ليس بناءً من حجارة، بل هو أمانة في أعناقنا، وأن الشهداء جميعهم أبناء هذا الوطن، مهما اختلفت زيارهم، لأنهم اتفقوا في قلب واحد أحبوا فيه تراب هذا البلد حتى الموت

ثلاثمائة مليون لا تساوي شيئاً -2

في خريف 2008، حين كانت بغداد ترتجف تحت وطأة الاحتلال، وتتساقط أوراق الشجر كالدماء على الرصيف، كان الرجل الذي لم يعرف الخوف ولا يعرف كيف يختبئ. الحاج أبو مهدي المهندس، الذي صنع من جسده جسراً بين المقاومة والسماء، اضطر أن يترك العراق هذه المرة، لا فراراً من الموت، بل بسبب ورقة الاعتقال الجديدة من الإدارة الأمريكية التي لم تكل من ملاحقته.

غادر إلى إيران، تاركاً خلفه كل شيء: بيته، رفاقه، مقعده في البرلمان، ورواتبه التي كانت تتراكم هناك، في خزائن المالية، كأنها ذنوب لم تغتفر.

في أحد أروقة مجلس النواب العراقي، كان محمود المشهداني، رئيس المجلس آنذاك، يتأمل قائمة الأسماء التي تمرر رواتبها شهرياً. توقف عند اسم واحد: "جمال جعفر" (أبو مهدي المهندس). تأمل الرقم: ثلاثمائة مليون دينار عراقي، وزيادة. مبلغ يكفي لبناء بيوت لعشرات العوائل، أو لشراء سيارة فاخرة، أو لقضاء سنوات في راحة.

التفت المشهداني إلى بهاء الأعرجي، رفيق الحاج: "يا بهاء، أبو مهدي صاحبكم، ليش ما يستلم فلوسه؟ ثلاثمائة مليون، هذا مو مبلغ بسيط. خابره، أو دز له خبر، أو خلي أحد يستلمهن نيابة عنه. الفلوس قاعدة تتراكم ومالية المجلس ما تتحمل". هالمسؤولية.

ضرب بهاء هاتفه، يتصل بقصي السهيل، صديق آخر يجمعهم حب الحاج المهندس. ثم اتصلوا بإيران، بالرقم الذي يحفظونه في قلوبهم أكثر مما يحفظونه في هواتفهم.

حجي، شنو أخبارك؟" سأل بهاء بصوت يخفي وراءه حنيئاً كبيراً.

بخير يا ولدي، والحمد لله"، جاء صوت الحاج من بعيد، واضحاً كأنه في الغرفة المجاورة.

حجي، المشهداني فزع علينا. في مبلغ ثلاثمائة مليون دينار، رواتبك وحمایتك، موجودة بالمالية، من شهر ما استلمتها. "إما تعال تستلمها بنفسك، أو دز لنا وكالة رسمية، أو ورقة، ونستلمها ونذرها لك لإيران.

كانت لحظة صمت طويلة. لاح في خيال بهاء صورة الحاج وهو ينظر إلى سماء قم، إلى تلك القبة الذهبية التي تتلألأ في البعيد، ثم إلى يديه اللتين تعودتا على حمل السلاح لا حمل النقود.

وأخيراً، جاء الرد، كالصاعقة، لكنها صاعقة من نور.

"لا... ما أخذها"

"صمت بهاء، ظن أنه لم يسمع جيداً: "حجي، شتقصد؟

ما أخذها، يا ولدي"، كرر الحاج بصوته الرزين الذي لا يعرف التردد. "أنا ما مداوم. الرواتب هذه للداوم، وأنا ما جالسة". "في مقعدي، مو رايح للبرلمان، مو قاعد ببغداد. شلون أخذ فلوس وأنا ما أداوم؟ هذي حرام. ما تنحلّ

.أغلق بهاء الهاتف، ونظر إلى قصي الذي كان يجلس بجانبه، وإلى المشهداني الذي ينتظر الجواب بفارغ الصبر.

شنو قال؟" سأل المشهداني.

"تردد بهاء للحظة، ثم قال: "قال... لا يريد. قال إنه ما مداوم، وإن أخذها حرام

جلس الشهيداني في مكانه، مذهولاً. رجل تطارده الولايات المتحدة، يهددونه بالاعتقال، يغادر وطنه اضطراراً، ترك مقعده، ترك كل شيء، ومع ذلك يرفض ثلاثمائة مليون دينار، ليس لأنه غني، بل لأنه يعرف أن المال الحرام لا يستقر في جيب المؤمن، وأن الأمانة ليست فقط في الدم، بل في الدرهم أيضاً

في تلك الليلة، جلس بهاء الأعرجي في غرفته، وأخرج دفتر مذكراته القديم. كتب التاريخ: 2008، وكتب الاسم: "أبو مهدي المهندس"، وكتب المبلغ: "300,000,000 دينار، لم يستلمها"، وكتب في الهامش كلمة واحدة: "رجل"

وضع القلم جانباً، وأطفا الضوء، لكن صورة الحاج وهو يرفض المال ظلت مضيئة في عينيه. كيف يمكن لرجل أن يعطي كل شيء للوطن، ثم يرفض أن يأخذ من هذا الوطن ما يستحقه؟ كيف يمكن لقائد أن يترك كل شيء خلفه، ولا يحمل معه سوى ضميره؟

تذكر بهاء حديثاً قديماً مع الحاج، حين سأله: "حجي، شو سر قوتك؟" وضحك الحاج وقال: "قوتي أني ما أخاف، وما أطمع. الخوف يذل، والطمع يفجع. إذا تركت الخوف والطمع، صار كل شيء هين"

صلاة في قلب النار -3

في رقعة من صحراء العراق، حيث تتلاشى معالم الأرض تحت وطأة الرمضاء، وتختلط حبات الرمل بغبار المعارك، كان الموت يزحف من كل حذب وصوب. قذائف الهاون تمطر السماء بنيرانها، والقناصة يتربصون بكل روح تطل برأسها من خلف المتاريس. لم يكن هناك مكان للاختباء، ولا ثغرة في جدار الموت تنفذ منها الحياة

وقف الشهيد أبو مهدي المهندس، ذلك القائد الذي تعلم أن الإيمان ليس مجرد كلمة تتردد على الشفاه، بل نور يسري في الدماء. التفت إلى الشيخ المرافق له، ونظر في عينيه نظرة لا تخلو من بشاشة الموقن، ثم قال بصوته الهادئ الذي يشبه "هدير البحر قبل العاصفة: "أمنّا للصلاة"

ارتجف الشيخ، وأحس كأن الأرض تهتز تحت قدميه ليس من هول القصف، بل من دهشة الطلب. قال متعجباً: "يا سيدي، القذائف تحصد الأرواح، والقناصة يتربصون بنا.. كيف نصلي هنا؟"

فكانت الابتسامة التي لا تنسى، تلك التي تليق بالعظماء وحدهم. ابتسم أبو مهدي كمن يرى ما لا يراه البشر، وقال: "سنصلي كما صلى الإمام الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء. إنه لفخر أن يصيبنا صاروخ ونحن ساجدون، وإنه لتوفيق عظيم أن نحظى بالصلاة والشهادة معاً"

تلك الكلمات لم تكن مجرد رد على سؤال، بل كانت إعلاناً عن حقيقة أسمى، عن يقين لا تهزه المدافع، وعن حياة تبذل في سبيل الموت الأسمى. وقفوا جميعاً، صفّاً واحداً، جسداً واحداً وقلباً واحداً، في ساحة الموت التي تحولت إلى محراب. رفع الشيخ صوته بالتكبير، فتعالت أصوات المجاهدين خلفه، تصدح في الفضاء كأنها ترد على قصف العدو بقذائف من نور

ركعوا، وسجدوا، وطمأنينة الموتى تسري في أوصالهم، وسكينة العارفين تغمر قلوبهم

لم تكن صلاتهم صلاة خائف يهرول، بل صلاة عاشق يترنم، وكأن الموت حولهم ليس إلا طيفاً بعيداً، وكأن القذائف التي تنهال على الأرض لا تمسهم لأن أرواحهم ارتفعت إلى عنان السماء

فلما سَلَمُوا وانصرفوا، ومشوا خطواتٍ قليلة، تساقطت القذائف كالمطر على المكان الذي كانوا فيه قبل لحظات. الأرض التي صلّوا عليها صارت حفرةً من نار، لكنهم نجوا، ليس لأنهم أسرع من القذائف، بل لأن الشهادة رزقٌ وتوفيق، ولأن الأجل لا يسبقه عجلٌ ولا يتأخر عن مواعده

تلك كانت صلاةً في قلب المعركة، درساً في الإيمان يكتب بحروف من نور على جبين التاريخ. لقد علموا أن الموت ليس نهاية، وأن الشهادة ليست قدراً، بل هي هدية تُمنح لمن يستحقها، ومن وقف بين يدي الله في خضمّ المعارك، فقد نال أسمى مراتب الفخر، فكانت صلاتهم في الصحراء أبلغ من خطبٍ في المحاريب، وأعلى من مآذنٍ تلامس الغيوم

عودة قبل رمضان -4

كانت الفلوجة تننّ تحت نير الظلام، والمدينة التي كانت تضجّ بالحياة صارت خراباً يبكي تحت سماءٍ رمادية. آلاف العائلات تدفقت على مخيمات النزوح، تحمل أطفالها بين أحضانها، وحنينها إلى بيوتها في قلوبها. النساء يبكين بصمت، والأطفال يحدقون بعيونٍ لا تفقه معنى الحرب، والرجال ينظرون إلى المدينة البعيدة كمن يوّدع روحه قبل أن يوّدع جسده. لم تكن تلك مجرد أرقام في تقارير، بل كانت قصصاً إنسانية تعج بالوجع، كل عائلة حملت معها ذكريات عمرها في حقبةٍ صغيرة، وتركت وراءها جدراناً عرفت منها الطفولة

في ذلك اليوم المشهود، كان مقر القيادة العسكرية يعجّ بالحركة والقصف لم يتوقف للحظة، والمعارك الطاحنة تحدث في الشوارع الضيقة. لكن المهندس، ذاك القائد الذي لا ينام على وسادة القيادة، شعر بجرح لا يداويه الرصاص، وألم لا تبلسمه الانتصارات العسكرية. نظر إلى الخرائط والتقارير المكدسة أمامه، ثم نظر من نافذة المقر إلى أفق المدينة المحترق، فإذا به ينهض فجأة، تاركاً وراءه كل ما يشغله من تفاصيل القيادة، ونزل بنفسه إلى حيث تعيش الجروح الحقيقية، حيث تتنفس الآلام وتصرخ الأحزان

المشهد هناك كان يقطع القلب ويذيب الصخر. خيام منصوبة على أرض قاسية، وأطفالٌ يبكون من الجوع لا من الخوف، وأمّهات يغطين رؤوس أطفالهن بقطع من القماش الممزق، وأباء يحدقون في الفراغ كأنهم فقدوا القدرة على الحلم نفسه. وقف المهندس وسط هذا البحر المتلاطم من الحزن الإنساني، وعيناه الواعيتان تبحثان في كل وجه عن بارقة أملٍ تختبئ خلف الرمء، ويدها المباركتان تمتدان لتلامس رأس طفلٍ هنا، وتقبّل جبين شيخٍ هناك

بينما كان يتفقد أحوال النازحين، لفت انتباهه صوت بكاءٍ خافتٍ ينبعث من خيمةٍ صغيرة على أطراف المخيم. اقترب منها فإذا بأمٍ شابة تحتضن طفلها الرضيع الذي يبكي بشراة، وإلى جانبيها طفلةٌ في الخامسة من عمرها تجلس على الأرض ترسم في التراب بأصبعها الصغير، والدها رجلٌ طاعن في السن يجلس في الزاوية، صامتاً، عيناه تحدقان في لا شيء

دخل المهندس الخيمة متوكناً على عصاه، وكأنه يستأذن روح المكان قبل أن يدخل. جلس على الأرض بجوار الأم، دون "تكلف أو تصنع، وقال بصوتٍ دافئ: "بويا شلونج، شنو اسم هذا الطفل الحلو؟

رفعت الأم عينيها المدمعتين، وكأنها لم تصدق أن قائداً بهذه المكانة يجلس على تراب خيمتها. تمتمت بخجل: "حذيفة، سيدي.. اسمه حذيفة

ابتسم المهندس ومد يده ليمسح على رأس الطفل، ثم نظر إلى الطفلة الصغيرة التي كانت ترسم في التراب. قال لها بلطف: "وانتي شنو اسمج باباتي؟

"رفعت الطفلة رأسها، ونظرت إليه بعيونٍ واسعةٍ بريئة، وقالت: "جدو أني اسمي مروة

"قال المهندس وهو يبتسم ابتسامة تخفي ألماً كبيراً: "الله اسمج يخبل وحلو ... انتي تحبين الرسم؟

أومأت الطفلة برأسها، ثم مدّت إصبعها إلى الرسمة التي كانت ترسمها في التراب وقالت ببراعة: "جدو هذا بيتنا .. رسمت بيتنا بالفلوجة. له باب أخضر وشبابيك كبار ، وجانت ماما تزرع بالحديقة مالمته

نظر المهندس إلى الرسمة في التراب، فرأى خطوطاً بسيطة لكنها تحمل عالماً كاملاً من الذكريات. شعر بغصة في حلقه، لكنه "تمالك نفسه وسألها بحنان: "وشنو تحبين بعد؟

قالت الطفلة بحماسة بريئة: "أحب الدجاج الي جانت بببي تربيه بالحديقة الخلفية، وجانت تنطيني بيضة كل يوم الصبح . " وأحب غرفة نومي، جانت بيها لعباتي وبيها ملابسي أحضرهن كل يوم للمدرسة

"عندها التفت المهندس إلى الرجل الطاعن في السن الجالس في الزاوية، وقال له: "عمي شلونك زين؟

رفع الرجل رأسه ببطء، وفي عينيه غبار الأيام ووهج الحزن. قال بصوتٍ حدةٍ كالرمل: "هل شوف بعين شلوني . عفت بيتي الي بنيته بيدي، وعفت زرعاتي وبستاني. عمري ستين سنة، ما فديوم تركت الفلوجة بأهلك الضروف . بس .. بس من "اجوي هل سفلة، طلعا من بيتنا .. شوكت نرجع عمي؟

سكت المهندس للحظة، وهو ينظر إلى جدران الخيمة المتهالكة، وإلى الأم التي تحاول إرضاع طفلها من ثدي جاف، وإلى الطفلة التي لا تزال تحدق في رسمتها الترابية بخوفٍ أن تمحوها الريح. ثم قال بصوتٍ هاديٍ لكنه مليء "بالإيمان: "عمي، تذكر من جنت صغير ، شلون جانت أمهاتنا يمولن الننا: "الصبر مفتاح الفرج؟"

"تنهد الرجل وقال: "أذكر، يا عمي .. أذكر . بس الصبر له حدود ، والقلب متعوب

اقترب المهندس منه أكثر، ووضع يده على كتفه وقال: "وعدك، عمي ، بدمي وبروحي، راح ترجع البيتك والبستانك. وترجع مروة وتشيل لعبتها من جديد، وتلعب بالحديقة، وتاكل من بيض بيبيتها. وان شاء الله ترجعون قبل رمضان ، واول فطور .بيتكم بقوة الله

.عندها رفعت الأم رأسها، وسألت بصوتٍ مرتجف: "وبيتنا راح نلكا من ما تركنا؟

نظر إليها المهندس بعينين تلمعان بالدموع المكبوتة، وقال: "راح يكون أجمل، باباتي. وراح اتشوفونه احلا من قبل ، لان "راح تبونونه بأيديكم، وتزرعون بي الحياة من جديد . وراح يكون عنوان الصبركم العظيم

نظرت الطفلة مروة إلى المهندس وقالت بثقة طفولية عذبة: "يعني راح ارسم بيتنا من جديد؟ راح ارسمه بألوان " . هواي، والباب راح اسوي أحمر هل المرة، والشبابيك بلون السماء

"ضحك المهندس من أعماق قلبه، وقال: "شلونه ما يعجبج ارسمي، واني اجيب الألوان الج بنفسي، يا اجمل رسمة بالدنيا

ثم نهض واقفاً يتحدث إلى الجمع من حول الخيمة، بصوته الدافئ الذي لا يخلو من حزم القائد: "راح ترجعون لبيوتكم .وحلالكم قبل رمضان بقوة الله. القوات الأمنية والحشد موجودين لحمايتكم. وهاي الكاع كاعكم، وهاي المدينة مدينتكم

أكد لهم أن كرامتهم خط أحمر، وأن حقوقهم ليست للبيع ولا للتنازل. كان يتحدث وكأنه يزرع بذوراً في قلوبٍ يابسة، وسقاها بدموعٍ لم يرها أحد لكنها كانت تنهمر في أعماقه

بعد أن انتهى من حديثه، عاد إلى مروة الصغيرة، جثا بجانبها وقال همساً: "احفظي هاي الرسم بقلبيج ، حتى من ترجعين، "راح اكون اني أول خطر يجي لبيتكم الأحمر . وماما تصبلي ستكان جاي

أومأت الطفلة برأسها بحماسة، وابتسمت ابتسامة أضاعت الخيمة كلها. أما الرجل الطاعن في السن فمسح دموعه تسللت من عينه، وقال بصوتٍ بحّةٍ لكنه امتلأ بالأمل: "الله يبارك بيك. كلامك فرح كلوبنا

مضى المهندس بعدها ينظم توزيع المساعدات، يتفقد الطعام والماء والدواء، كأنه أبّ لعائلةٍ ضخمة. كان يمشي بين الخيام، يحمل كيس طعامٍ هنا بيده، ويمسح دموعه طفلٍ هناك بأصبعه. وفي الليل، حين عاد إلى مقر القيادة متعباً، لم يستطع النوم. كانت عيناه ترى صور العائلات التي تركت كل شيء، وأذناه تسمع بكاء الأطفال. لكن في عمق قلبه، كان يحمل صورةً أخرى: صور عودتهم إلى الفلوجة، وضحكات مروّة وهي تفتح بابها الأحمر، وموائد الإفطار في رمضان التي تجمع الشمّل. تلك كانت حربته الحقيقية: أن يحمي النفوس قبل أن يحمي الأرض، وأن يبني الأمل في القلوب قبل أن يبني المدن.

وصية التراب-5

كانت الطفلة نرجس لا تتجاوز الثامنة من عمرها، ترتدي ثوباً أزرق باهتاً، وقد تعلق بشعرها شريطاً أحمر لم تشتتره أمها، بل كان آخر هدية من والدها قبل أن يرحل. وقفت عند باب المقر، يداها الصغيرتان ترتجفان، وعيناها الواسعتان تبحثان عن وجه يشبه وجهه، عن ظلٍ يردّ لها دفء ذلك الصوت الذي فقدته.

دخلت القاعة، والناس حولها كأشباح تمرّ، والصور على الجدران تضحك بصمت. كانت تحمل بين أصابعها زهرة يابسة، انتزعها من قبره في الزيارة الأخيرة. تقدمت خطوة، ثم أخرى، ثم توقفت. انفجرت باكياً فجأة، بكاءً لا يوقف، كان السماء كلها تجتمع في حنجرتها الصغيرة، وقررت أن تنزل دفعة واحدة.

هنا، في تلك اللحظة، تحرك الرجل الذي كان يجلس في الزاوية

المهندس، القائد الذي اعتادت عيناه على قراءة الخرائط وتوزيع الخطط، لم يعد يرى أمامه خريطة ولا معركة. رأى فقط فتاةً يتيمّة، تقف وسط الغبار كعصفورٍ سقط من عشّه.

نهض بسرعة، ليس كقائدٍ، بل كأبٍ فقد طفلته في سوق مزدحم. نزل إلى مستوى عينيها، لا يهمله من يراه، ولا من يحكم على دموعه. ركع أمامها على ركبتيه، وضّمها إلى صدره بقوةٍ كأنه يحاول إعادة نبضٍ مات، أو يجمع أجزاءً تناثرت. ضّمها طويلاً، طويلاً حتى خفت بكاءها وتحولت إلى شهقاتٍ تخنقها.

مدّ يده الكبيرة الخشنة -التي اعتادت حمل السلاح والكتابة على لوحة القيادة- وبدأ يمسح دموعها بلطفٍ متناهٍ، كأنها مصنوعة من حرير، وكأن لمسها يحتاج إلى طهارةٍ لا يملكها إلا الرجال العظماء.

كانت دموعه تسبق كلماته. اغروقت عيناه، وانحدرت على خديه كقطراتٍ لا تخجل، بل تشهد. صوته اختنق حين قال، ممسكاً بيدها الصغيرة بين كفيه:

لا تبجي باباتي ... أنا ابوج من هل لحظة اني ابوج . شنو تردين يصير . ما اريد اشوف دموعج بعد ، واني موجود حبيبتي –

.
سكتت نرجس للحظة. نظرت إليه بعينين غارقتين في الماء، ثم أحنّت رأسها على كتفه كأنها وجدت مرسىً بعد عاصفة.

لم ينته الموقف عند تلك العبارة

لم يكن المهندس من أولئك الذين يتحدثون بكلام جميل ثم يعودون إلى مخططاتهم. منذ تلك اللحظة، كتب اسمها في قلبه قبل أن يكتبه في أي دفتر. تبناها وعائلتها، ليس رسميًا، بل بروحه قبل جيبه

كان يتصل بأما كل أسبوع، يسأل عن دروسها، عن وجباتها، عن نومها. كان يرسل لها طرودًا صغيرة فيها كتب قصص، وحلوى، وأحيانًا شريط جديد لشعرها، كما كان والدها يفعل. كان يعرف مواعيد امتحاناتها قبل معلمها، ويوصي من حوله: "عوانل الشهداء هم أمانة الله في أعناقنا. نرجس بنت كلنا"

وفي الليالي التي كانت تمرض فيها، كان يترك كل شيء ويذهب إلى عيادة القرية، يقف بجانب سريرها، يقرأ لها دعاءً، ويحكي لها حكايات عن أبيه الشهيد في الجنة، عن قصور من نور وحدائق لا تدبل

كانت نرجس تناديه "عمي المهندس"، لكن في قلبها كان أكثر من عم، كان جسرًا بين الأرض التي تقف عليها والسماء التي اختارها والدها. كانت تعرف أنه ليس بديلًا عن أبيها، لكنه كان رجلًا علّمها أن اليتيم لا يُعالج بالبكاء، بل بالإحساس أن هناك من يختارك

:قبل أن يرحل المهندس بعد سنوات، أوصى المقربين منه، كما كان دائمًا يفعل

.إبقوا عيونكم على نرجس. هي وصيتي. وما تركوني ألقى ربي وأنا مقصر بحق بنت كانت دموعها أفسى من أي رصاصة –

ومضت الأيام، وكبرت نرجس، لكنها لم تنس أبدًا ذلك اليوم، ذلك الرجل الذي نزل إلى الأرض كي يرفعها إلى السماء، ذلك القائد الذي بكى لأجل طفلة، وجعل من دموعه وعدًا لا يكسر

الشهيد ابو منتظر المحمداوي

وجه لا يُصوّر -1

في معارك الصفلاوية، سنة 2016، كانت الأرض تتنفس ناراً والسماء تمطر رماداً. كان القائد أبو منتظر المحمداوي يقود محوراً مهماً في المعركة، رجل من تراب الأرض، صلب كجبالها. ملامحه المنحوتة تروي حكاية صمود طويل. في عينيه حدة الصقر، وفي قوله فصاحة الواصل. هو السند إذا جار الزمن، والعزم إذا التبس الأمر.

عند بدء العمليات، أرسل طلباً عاجلاً: "أريد المصور والمراسل الحربي السيد مرتضى الموسوي. حتى يوثق العملية".

حضر مرتضى مسرعاً، كاميرته معلقة على كتفه، وقلبه يخفق بترقب. دخل المقر، فوجد أبا منتظر جالساً على قنفة قديمة، ببذلة العسكرية مغيرة، وعلى جبينه خطوط لم تصنعها السنوات، بل صنعتها القرارات.

رفع أبو منتظر يده وغطى وجهه.

"لا تصورني، بويا مرتضى".

توقف مرتضى مبهوراً. "ليش... بويا، أنت القائد. الناس تريد أن تعرف من يقود هاي المعركة والتاريخ. لازم يحفظ وجهك".

"التاريخ يحفظ بالدماء، يا مرتضى، مو بالوجوه".

جلس مرتضى أمامه، وأطفأ الكاميرا. "ليش؟ ليش ما تريد وجهك يطلع وانت رفعت رايات النصر هنا وبغير مكان؟

"صمت أبو منتظر لحظة، ثم قال بصوت خافت: "لأن أخاف

"انت؟ اتخاف؟"

أخاف من الرياء والعجب يأخذني ويروح تعبني، أخاف من الناس تظلم هل شباب المضحية من يشوفني "وما يشوفوهم، فإعبالهم اني صانع النصر، بويا مرتضى، روح للخطوط الأمامية وصور الجنون

"الجنون؟"

اي نعم، الجنون. صوّر الزلم الي يدوسون الخوف بإباء. صوّر الشاب الي تشيل البندقية بدال الرفاهية. "صوّر الجندي الي يزحف على بطنه بالهيمه، والرصاص يمر من فوق رأسه، وهو يضحك. صوّر هذا الجنون الجميل

"اقترب مرتضى خطوة. "وأنت؟ وين من كل هذا؟

أني مو شي مهم ، مرتضى. اني زلما اخلي خطة على الخرايط هنا. بس الشباب الي يقاتلون... همة الي "

"بس الحكاية تحتاج وجه"

الحكاية تحتاج قلب، مو وجه. روح لان الكاميرا لازم أتوثق الي اشوفة ،سيل جارف من الأبطال، مو "

قام مرتضى، وحمل كاميرته. عند الباب، التفت وقال: "راح اصور الجنون مثل حجايتك . بس راح "

"اسولفلهم اكو رجال في الخلف ، غطى وجهه، لأنه كان أكبر من أن يرى

ابتسم أبو منتظر خلف يده، وقال: "كللهم : اكو هنا جنود. اكو هنا وطن. اكو هنا زلم ما يشبهون كل الزلم "

خرج مرتضى، وبقي أبو منتظر وحده، يده على وجهه، ودموعه تبلل كفه. في الخارج، كانت المعركة تشتعل، والكاميرا تدور، والجنون الجميل يكتب فصلاً جديداً من فصول الصقلاوية

خمس صواريخ وضحة سرّ -2

كان الهاتف يرنّ في هدوء الليل كأنه يطرق باباً من خشب. رفع أبو باقر الساعدي السماعة، فسمع صوت صديقه أبو منتظر المحمداوي

"وين أنت؟"

".اني بالبيت"

".لعد افتح الباب، اني قريب عليك"

أغلق أبو باقر الخط، وخرج إلى باحة المنزل. كانت السماء صافية كمرآة، والقمر معلق كقطعة فضة. لكن الصفاء لم يدم. سمع صوتاً يشقّ الهواء، صوتاً يعرفه جيداً. رفع رأسه، فرأى في السماء ثلاثة صواريخ تشقّ الظلام كخطوط نار

فتح الباب لأبي منتظر، ودخل الرجل بهدوء غريب، كأنه لم يسمع شيئاً. جلسا في الغرفة، وكان هناك شخص ثالث جالس معهم، رجل هادئ العينين، لا يتكلم كثيراً

جلس أبو منتظر وطلب ماءً. شرب، ثم مسح فمه بظهر يده. كان في وجهه شيء من الرضا، شيء يشبه

رائحة المطر بعد جفاف طويل

:قال أبو باقر بلهجة مندهشة
"شفت الصواريخ؟ شفت بالسما ثلاثة صواريخ"

:نظر إليه أبو منتظر، وابتسم ابتسامة خفيفة، ثم قال بهدوء
"مو ثلاثة ، هنا خمس صواريخ"

في تلك اللحظة، رفع الشخص الثالث رأسه. كان قد بقي صامتًا طوال الوقت. نظر إلى أبي منتظر نظرة طويلة، ثم قال ببطء، كأنه يزن كل كلمة
"لعد حجي انت مطير الصواريخ... لان تعرف العدد الحقيقي"

سكتت الغرفة. سكتت حتى كأن الجدران تسمع. نظر أبو باقر إلى صديقه. نظر الشخص الثالث إلى أبي منتظر. أما أبو منتظر، فضحك. ضحكة قصيرة، هادئة، لا تشبه ضحك المنتصرين، بل تشبه ضحكة من أنهى عملاً وأراد أن يستريح.

ثم سكت. ولم يقل نعم، ولم يقل لا. كان الصمت أبلغ من كل جواب. كان الصمت اعترافاً بلا كلمات، وإعلاناً بلا أسماء. كان الصمت يقول: نعم، أنا فعلت، ولن أقول أكثر

خرج الشخص الثالث بعد قليل. لم يسأل أكثر. ربما فهم، وربما أراد أن لا يفهم. أما أبو باقر، فجلس ينظر إلى صديقه كأنه يراه لأول مرة. قال
"ليش ما بلغتني؟"

:قال أبو منتظر
"لان الموضوع يحتاج الفعل قبل الحجي"

وفي الخارج، كان المشهد يتكلم بدلاً عنه. الصواريخ التي رآها أبو باقر ثلاثة، لكن الحقيقة كانت خمسة، كانت أوسع من العين، وأكبر من الصوت. اشتعلت النيران في القاعدة الأمريكية ، وامتد اللهب كوحش جائع. سمعت الانفجارات، وارتفعت أعمدة الدخان كأشجار سوداء في السماء. آليات ومعدات عسكرية تحولت إلى حديد مذاب. جنود احتلال سقطوا بين قتيل وجريح

كانت الصواريخ رسالة، لا حرباً عابرة

في الصباح، كان الخبر ينتقل من فم إلى فم. قالوا: ضربت المقاومة قاعدة للاحتلال. قالوا: خسائر كبيرة. قالوا: خمسة صواريخ. لكن أحداً لم يعرف من أطلقها. أحداً لم يعرف أن الرجل الذي جلس يشرب الماء بهدوء كان هو من أشعل تلك النار

وفي بيت أبي باقر، بقي الكرسي الذي جلس عليه أبو منتظر فارغاً. بقي الكوب نصف ممتلئ. بقي الصمت. وبقيت تلك الضحكة الصغيرة التي لم تفارق ذاكرة أبي باقر

تعلم أبو باقر أن أعظم الرجال لا يتحدثون كثيراً. تعلم أن من يعرف العدد الحقيقي للصواريخ، لا يقولها إلا في لحظة خطأ، أو لحظة ثقة. وأن الصمت أحياناً يكون شهادة، وأن الضحكة أحياناً تكون اعترافاً

وفي الليل، حين عاد أبو باقر إلى باحة منزله، رفع رأسه إلى السماء. كانت صافية كمرآة، كأن شيئاً لم يحدث. لكنه يعرف أن السماء كانت شاهدة. وأن خمسة صواريخ سبقت ضحكة رجل، وبقيت في الذاكرة كحكاية تُروى في المجالس، همساً، حتى لا يعرف العدو من الذي أشعل النار

يَا الله -3-

في صباح الثالث عشر من تموز، عام خمسة عشر وألفين، كانت الشمس تشرق على أرض تشرب الدم منذ أشهر. كان اليوم اثنين، والناس في المدن يبدؤون أعمالهم، أما هنا، في ساحة المعركة، فكانت الساعة تقاس بالرصا ص لا بالعقارب

جلس أبو منتظر المحمدوي على حجر، وجسده يحمل جراحاً لم تندمل. كان يتكى على عكازة كأنها صديق وفّي. نظر إلى السماء، ثم قال لمرافقه بصوت هادئ: "أريد ماي حتى اتوضه"

نظر المرافق إلى ساعته، وقال: "حجي بعد 13 دقيقة وتصير الصلا"

ابتسم أبو منتظر، وقال: "ميخالف، أريد أن أتهيا للصلا"

توضأ. صب الماء على كفيه، ومسح وجهه، وذراعيه، ورأسه، وقدميه. كان الماء حاراً، لكن قلبه كان بارداً. فرش السجادة على التراب، ووضع التربة أمامه. ثم وقف، متكئاً على عكازته، وأقام الصلاة. صلى الظهر في ساحة المعركة، وسط دخان البارود ورائحة الحديد المحترق. لم يكن هناك محراب إلا الأفق، ولا جدار إلا الإيمان

بعد الصلاة، جاء أبو حبيب السكيني. دار بينهما حديث طويل، حديث إخوة يعرفون أن اللقاء قد لا يتكرر. تحدثا عن المعركة، عن الخطوط، عن الرجال. ثم انتهى الحديث، واستعد أبو حبيب ومجموعة من الجنود للتوجه إلى الموقع الذي سيكتب فيه القدر

وقبل أن يتحركوا، وصل الحاج أبو مهدي المهندس، والحاج قاسم سليمان، وفالح الفياض. جاءوا كأنهم يعرفون أن هذه لحظة يجب أن تشهد. جلس أبو منتظر يتحدث معهم عن المعركة، عن الخط، عن الثبات. كان صائماً، لكن وجهه كان مشرقاً كأنه يفطر على نور

انتهى الحديث. وقف أبو منتظر، وقال

"راح ارواح وياه ابو حبيب. أريد أن أستطلع المنطقة. لا ما اقدر اكمل شرح اله استطلع المكان بنفسى"

:تقدم أحد المرافقين، وقال بصوتٍ متهدج
"المنطقة ملغومة بالعبوات والمتفجرات، وأنت جريح، ما تكدر للهولة"

:نظر إليه أبو منتظر نظرةً طويلة، ثم قال
"مو مهم . المهم أنني أريد أن أسلم على المقاتلين، وأقوي معنوياتهم"

لم يكن يقبل الجدل. كان يعرف أن بعض الطرق لا تُقاس بالمسافة، بل بالنية. مشى قليلاً. هو، وأبو حبيب، وأبو سريح، ومن كان معهم. كانت الأرض تحتهم تتنفس، لكنهم لا يعرفون. أو ربما كانوا يعرفون، لكنهم مشوا.

.ثم صار الانفجار

كان صوتاً يملأ السماء والأرض. دوى كأنّ العالم ينشق. تطاير التراب والحجر، وارتفع الدخان كوحش أسود. من كان قريباً سمع صوتاً يخرج من قلب الغبار، صوتاً خافتاً لكنه واضح، كأنه يأتي من السماء مباشرة
"...يا الله"

.كلمتان. كلمتان فقط. ثم سكت كل شيء

حين انكشف الغبار، كان المشهد أكبر من الكلام. تقطّع جسد أبي منتظر إلى نصفين. رحل الجسد، لكن الروح رُتقت إلى السماء، مع الصالحين والصديقين

بقي العكاز على الأرض. بقي كوب الماء نصف ممتلئ. بقت السجادة مطوية. وبقيت التربة عليها أثرُ جبهةٍ سجدت لله في ساحة المعركة

:وفي المدينة، حين وصل الخبر، لم تبك زوجته بصوتٍ عالٍ. بكت في صمت، كما عاشت في صمت. قالت
"كان يتمنى الشهادة. والله أعطاه"

وفي ليل ذلك اليوم، رفع المقاتلون رؤوسهم إلى السماء. كانت صافية. كأن شيئاً لم يحدث. لكنهم يعرفون أن الأرض تحتهم تحمل دماً، وأن السماء فوقهم تحمل روحاً. وأن رجلاً توضأ وصلى، ثم مشى إلى الله

. يا الله "... كانت آخر كلمة. وأجمل كلمة. يقولها ابا منتظر"

الشهيد ابو تقوى السعيدى

الرصاصة التي لم تطلق -2

في زحام الحرب، حيث تُصدرُ الصواريخ صوتَها ، وتتشابكُ الحدودُ مع الدخان، كان "أبو تقوى السعيدى" يجلسُ على حافةِ الرصيفِ المتصدع، يمسحُ غبارَ المعركةِ عن جبينه بكمّهِ المتآكل. كانت المنطقةُ تشتعلُ: إسرائيلُ وأمريكا تزمرجان في وجه إيران، والعراقُ يدفعُ الثمنَ من دمِ أبنائه. مقراتُ الحشدِ الشعبيّ تنهالُ تحت القصفِ، والمدنُ تلبسُ ثوبَ الحدادِ قبلَ أن تُشرقَ شمسُها

اختارَ أبو تقوى مجموعةً من الشبابِ الأشداء، الذين عرفت أيديهم لغةَ البنادق، وقلوبهم لغةَ الليلِ الطويل. وقفوا أمامه كالسيوفِ المنتصبة، إلا واحداً... "بارّة". شابٌّ في الثلاثين من عمره، إعلاميّ نحيلُ الجسد، واسعُ العينين، كان يحملُ دفترًا وقلماً أكثر مما يحملُ بندقية

:تقدّم بارّة، واسرار وجهه جرح لا ينزفُ دماً بل كبرياءً مكسوراً
"أبو تقوى... ليش ما ختاريتني؟ ليش اني مو بعينك؟ لو مايصير اكون مقاوم مثلكم؟"

نظرَ إليه القائدُ طويلاً، ثم أخذَ بيده — تلك اليدُ التي اعتادتُ على حملِ الرشاشِ، لكنها الآن تحملُ حناناً اخوياً — ومشى به بعيداً عن ضجيجِ المجموعة. سارا مسافةً، حتى صارَ صوتُ الرصاصِ همساً بعيداً

: قال أبو تقوى بصوتٍ خفيضٍ كأنه يهمسُ لاختيه
"حبيبي بارّة... ترى المعركةُ مو بس مسيرات وصواريخ؟"

"ردّ بارّة بمرارةٍ: "حجي بس المسيرات والصواريخ هنا يكتبُ النصر

:ابتسم أبو تقوى، وربّت على كتفه
الصواريخ تفتح ثغرةً بقوة العدو... بس الكلمةُ هي التي تهدمُ العدو. الإعلامُ مو هامش بالمعركة، الاعلام "قلب المعركة النابض. هواي من المعارك اندثرت لأن صوتها ما وصل للناس؟ وكم قطرة دم راحت لأن محد وثقها؟"

:صمت بارّة. تابع القائد
سمعت بيوم من الايام ، سماحة الإمام القائد علي الخامنئي، يقول: 'الإعلام أكثر فعالية وكفاءة من "الصواريخ والطائرات والمسيرات في فرض التراجع على العدو'. واني أقولُ لك: من يملكُ الكلمةَ يملكُ "الوعي، ومن يملكُ الوعيَ يملكُ القرار. أنت ما تشيل البندقية ، انت شايل السلاح الأخطر والأقوى

:رفع بارّة رأسه، وفي عينيه بريقٌ جديد
"وهسة شنو تكلفني حاج؟"

:قال القائد بحسم
أريدك تكون عين الأمة ولسانها. أريدك توثق كل قطرة دم، وكل انتصار، وكل خيانة. أريدك توصل إلى "قلب كل عراقي قبل ان توصل رصاصة العدو صدره. المعركة اليوم معركة وعي قبل ان تكون معركة سلاح."

: اقترب منه أكثر، وقال بصوتٍ ييوح صدقاً

تعرف ليش ما اختاريتك ويا المجموعة وكلفتك بهل موضوع ؟ لان اختاريت الشخص الصح والمناسب . " و انت أول واحد بالخطوط الإمامية... ما لتقاتل، بس راح تروي . لان التاريخ ما ينكتب بس بالرصاص، بل "يكتب بالحبر

دمعت عينا بارة. لم يقل شيئاً. فقط أمسك يد القائد وقبلها، ثم عاد إلى مكانه، وهو يحمل في صدره معركة جديدة.

وفي تلك الليلة، كتب بارة أول تقرير له من قلب الحدث. لم يكن يحمل سلاحاً، لكن كلماته كانت تخرق جدار الصمت كالرصاص. وعند الفجر، حين سئل أبو تقوى عن سر اختياره، قال

لأن المعركة تحتاج إلى الرماي الحقيقي ، وتحتاج الى صاحب الصوت الحقيقة. وبارة... رماي معدل لا " . وما تخطي كلماته

نور ما قبل الرحيل -2

كان الأسبوع الأخير من حياته يسير ببطء غريب، كأن الأيام تعرف أنها تحمل بين ضلوعها رجلاً لن تله مثله مرة أخرى. في المقر العسكري للمقاومة العراقية، كانت الكاميرا تستعد لالتقاط فواصل حربية، تلك المشاهد التي تسبق النشيد فتشعل في القلوب جذوة الفداء

وقف أبو تقوى السعيد إلى جانب أحد الجنود، ساكناً كأنه جبل أزاحت الریح عن مكانه قليلاً. كان وجهه يشبه الصباح حين يتنفس لأول مرة، بياضاً يشق العتمة دون أن يدرك صاحبه أنه يضيء

رفع المصور عدسته، ثم توقف. أعاد النظر، ومسح بيده على الشاشة الصغيرة كأنه يزيح غباراً عن حقيقة لا تصدق. ثم رفع رأسه نحو الرجل الواقف بثبات، وسأله بصوت خالطه العجب

«حجي... شو وجهك مضوي! شنو تستخدم الوجهك؟»

ابتسم أبو تقوى ببطء، تلك الابتسامة التي كانت تمر على شفثيه كنسيم على ماء راكد، وقال بهدوء لا يعرف الاستعراض

«. واني جابني على هل سوائف كل شي ما اخلي بس اغسل وجهي مثل ما الناس اتغسل»

ضحك المصور، وظن أن الرجل يخفي سرّاً صغيراً، فقال بمزاح رقيق

«حجي هاي نتائج صلاة الليل... هذا نور رب العالمين ما موجود بالصيدليات»

سكت أبو تقوى لحظةً. نظرَ إلى السماء من نافذةٍ صغيرة، ثم أعادَ بصره إلى المصوّر، وقال بصوتٍ خفيضٍ: كأنّه يحدثُ نفسه

صلاة الليل... تبيض الوجه بال دنیا، وتنور القبر. واني ما أدعي شي، بس أرجو من الله ان تكون صلاة»
«الليل شاهد عليه بالقبر

سأله المصوّر بترددٍ، كأنّه يخشى الإجابة

«أبو تقوى هم تخاف؟»

هزّ رأسه ببطءٍ، وقال

الخوف ما يصير بقلب امتلاً بحبّ الله. والي يعشق الشهادة ما يعرف الخوف، والله لو اعرف ان دمي»
«يروى شجرة واحدة من أرض العراق، لقدمته بدون تردد

ثم عادَ إلى وضعه الأول، وربطَ كفيه أمامه، وكأنّه يستعدُّ لصلاةٍ لا ركوعَ فيها ولا سجود

رفع المصوّر الكاميرا مرّةً أخرى. أضاءت إشارة التسجيل. لم يكن يعلمُ أنّه يوثقُ نوراً سيرحلُ بعد أسبوع،
وأن تلك الابتسامة ستصبحُ وصيةً لمن بقي

بعد سبعة أيام، ارتقى أبو تقوى. وحين عادَ المصوّر إلى التسجيلات، شاهدَ المشهدَ مراراً. كانَ وجهه يشعُّ
كما هو. لم يكن هناك فلتَر ولا إضاءة، كانَ نوراً خرجَ من قلبِ صليّ الليل، فأشرقت روحه قبل أن تشرقَ
شمسُ العراق

آخرُ فطورٍ في العبيدي 3

في ليل من ليالي العبيدي، كان أبو تقوى السعيدّي واقفاً بين يدي الله، يصليّ صلاة الليل، ويطيلُ السجود
حتى يظنّ الجدارُ أنّه لن يرفعَ رأسه. ثم جاء الفجر، فمرّ على غرف أولاده واحداً واحداً، يوقظهم بصوتٍ
خفيضٍ حنون: «قم يا بني، الصلاة خيرٌ من النوم». صلّوا خلفه، ثم عاد إلى فراشه قليلاً، نومة من لا يأخذ
من الدنيا إلا ما يُعينه على الآخرة

استيقظ، تناول فطوراً خفيفاً، وجلس ينتظر مرافقه علي نايف، أبا سجاد. كان ينتظره كما ينتظر المؤمنُ
رفيقَ دربه. وصل أبو سجاد، ففتح أبو تقوى الباب، وابتسم

«صباح الخير ابو سجاد»

«صباح النور حجي شلونك؟»

«. الحمد لله ننتظر عناية الله وصاحب الزمان»

«. ضحك أبا سجاد، وقال: «الله يطول بعمر ك حاج

«. نظر إليه أبو تقوى نظرةً طويلة، ثم قال: «العمر ما ينقاس بالسنين، العمر شنو قدمت الله بي

انطلقت السيارة من العبيدي نحو شارع فلسطين. كان الشارع يمرّ ببطء، والناس يبدؤون يومهم، وأبو تقوى يحدّق في الطريق كأنّه يودّع كلّ حجرٍ فيه

«قال ابا سجاد: «ابو تقوى، أنت دومك تسرلف عن الشهداء. شنو هل سر وهل الاشتياق الدائم لهم ؟

تنفّس أبا تقوى بعمق، وقال: «الشهداء يابو سجاد ما يحبون الموت لان كارهين الدنيا، لا لان عشقوا الي .». انطاهم الحياة. اني اشتاق إلى لقاء الله، واخاف بيوم قصرت ويا رب العالمين

«.بس الشهادة مو شي سهل»

«وما يحصلها إلا ذو حظاً عظيم . اااااا هينا لمن التحق بركب الحسين؟»

«.سكت ابا سجاد قليلاً، ثم قال: «فعلاً ، اصحاب الحسين ضحو بكل شي

قال ابا تقوى بصوت ارتجّ فيه الحنين: «ما ضحى الحسين من أجل ملك ولا من أجل مال ، ضحى من أجل الحق. من أجل أن تبقى كلمة الله العليا ، من أجل ما أكون الناس عبيد للطغاة. أصحابه؟ كانوا يطلبون الشهادة مثل طلب العطشان للماء. ابو سجاد، اذا وحت ، لا تبجون عليه ، ابجو على العراق الي امريكا تخطط وتخرط بكيفها بي ، ابجو على الحق الي قليل الناس الي تمشي بي . ومثل ما قال السيد الشهيد الدين » بدمتكم ولمذهب بدمتكم

«قال ابا سجاد وعيناه تلمعان: «كلنا على دربها واذا تستشهد استشهد وياك؟

«.احنا على الدرب الحسين ، والباقي على الله»

وصلت السيارة إلى المقرّ العسكريّ في شارع فلسطين. دخلوا من بوابة النظام، وساروا مسافةً قصيرة. كانت السماء صافية، لكنّ الموت كان يتربّص فوقهما. لم يمض وقتٌ طويل حتى انقضّ صاروخٌ أطلقته مسيرة أمريكية، فاهتزّ المكان، وتصاعد الدخان، وامتأّ الهواء بلونٍ رماديّ ثقيل

.صمتت السيارة. صمتت الشوارع. وصعدت روحان إلى السماء

في لحظاته الأخيرة، كان أبو تقوى قد قال لأبي سجاد قبل دقائق: «إذا وصلنا، ادغ لي بالشهادة.» ولم يكن

يعلم أنّ الدعاء سيُستجاب قبل أن يجفّ من شفّتيه

مضى أبو تقوى السعيديّ، ومضى أبو سجاد، وبقيت ذكراهما في العبيدي، وفي شارع فلسطين، وفي كلّ زاويةٍ من العراق. وبقيت تلك الكلماتُ تتردد: « الدين بدمتكم ولمذهب بدمتكم

خرج الامين العام سماحة السيد حسن نصرالله وقال " الشهيد القائد الحاج مشتاق وهو اسم على مسمى كان يبدو مشتاقاً للقاء ربه ولقاء سيده أبي عبدالله الحسين عليه السلام، والحاج ابو تقوى من خيرة الإخوة " الي كانوا مع القائد الجهادي الكبير ابو مهدي المهندس رضوان الله عليهم

وهكذا، بعد صلاة ليلٍ، وأذان فجرٍ، وأولادٍ أيقظهم للحياة، ورفيقٍ سار معه إلى النهاية، صعد أبو تقوى إلى ربّه، تاركاً خلفه نوراً لا تنطفئُ جذوته

الشهيد حسين العقابي هوار

هوار.. حين يصير الاسمُ رصاصةً -1

في زاويةٍ قصيّةٍ من خان بني سعد، حيث ينأى نهر ديايي على وسادةٍ من نخيل، كان بيتُ "حسين هادي العقابي" يشبه كل البيوت: أبٌ يكدح، وأمٌّ تدعو، وإخوةٌ يملؤون الفضاء ضحكاً. كانوا ينادونه "هوار" — كلمةٌ كردية تعني "الصياد". لم يعرف أحدٌ لماذا لُقّب بها، لكن الأيام كشفت أن اللقب كان نبوءةً: صيادٌ

يتربّص بفريسته في صمت

في ربيع 2003، دخلت قوات الاحتلال الأمريكي العراق. تغيّر كل شيء. صار الأفق بعيداً، والسماء أثقل. رأى حسين بعينه ما لا يحكى: دبابات تدوس الحقول، ومدناً تُحاصر، وأطفالاً يبحثون عن آبائهم بين الركام. في تلك اللحظة، تحوّل الصياد من صمته إلى قرار

في العشرين من أيار، قبل أن يجفّ ندى الصباح، اجتمع ثلاثة: حسين، ومهدي صالح الزيدي، وأحمد جاسب اللامي. كانوا شباباً في عمر الزهور، لكن قلوبهم صارت كهوفاً من الغضب والحزن. حملوا عبوة ناسفة، وزرعوها على طريقٍ تعبره رتلاً للاحتلال. لم تكن مجرد عملية عسكرية؛ كانت صرخةً من أرضٍ تُحتضر.

" . هوار: "لا تنفذون ، الرتل جاي . من أنطي الإشارة نفذوا
"مهدي: "قلبي يدك بسرعة من الحماس يا حسين
" . هوار: "الله ويانة . انصب العبوة، واخفي السلك مال العبوة
" !أحمد: "تم. ابتعدوا
" . هوار: "انسحبوا. لا تباوعون للانفجار. الله أكبر
"مهدي: " هوار العبوة مكانها صح؟
" . هوار: "هدوء بدون صوت . خطوة غلط انموت كولنا
" . أحمد: "أسمع صوت المحركات
" . هوار: "استعدوا. الانفجار... نتفرق

انفجرت العبوة. اهتزّت الأرض، وتصاعد الدخان كأنه روحٌ تخرج من الجسد. خسائرُ بالأرواح والآليات. نجحت العملية. لكن حسين لم يعد ذلك الشاب الذي يضحك مع إخوته. صار مطلوباً. صار اسماً يطارده الأمريكان، وظلاً يختفي بين البيوت والحقول

لم تعد أمه تنام. كانت تنتظر طرقات الباب، وتدعو أن يكون العائد ابنها لا خبره. صار "هوار" يُخفي وجهه "عن الشمس، لكنه لم يخف قلبه عن الله. كان يقول لرفاقه: "إذا متّ، لا تبكوني. أنا اخترت الطريق

في النهاية، لم يكتب التاريخ كيف انتهى "هوار". لكنه كتب أنه كان هناك شابٌ من خان بني سعد، رفض أن يكون مجرد رقمٍ في إحصاء الاحتلال. صار رصاصاً في وجه الظلم، وأغنيةً حزينةً تغنيها أمه كل ليلة

الزيارة الاستطلاعية الأخيرة -2

في عام 2004، كانت بغداد تُقاس بالخوف لا بالكيلومترات. من المشتل إلى العبيدي، صار الطريق شرياناً أسود، يسمّيه الناس "طريق الموت". كل رتلٍ يعبره يترك خلفه دخاناً وخسائر بالاحتلال . تعلّمت العربات

المصفحة أن تخاف من حجارة هذا الشارع. لذلك قرّر قائد القوات البرية الأمريكية أن يفتح طريقاً جديداً، من سوق شهداء العبيدي إلى منطقة البلديات. أراد أن يهرب من الموت، فبحث عن شارع لا يعرف اسمه بعد.

وصل الخبر إلى حسين هادي العقابي، الملقّب "هوار". كان جالساً بين رفاقه في غرفة ضيقة، يتقاسمون رغيف خبز وشايّاً ثقيلًا. قال صديقه: "سمعت أن القائد بنفسه جاي يستطلع الشارع. يريد يشوف الشارع بعينه." صمت هوار. أطرق قليلاً، ثم رفع رأسه وقال: "لعد، الشارع الجديد راح يكون مقبرتهم

لم يكن قراراً سهلاً. كان يعرف أن الزيارة الاستطلاعية تعني حراسة مشددة، وطائرات تحوم، وجنوداً يفتشون كل شبر. لكنه كان يعرف أيضاً أن الخوف إذا دخل القلب مرة، لا يخرج. جمع رفاقه: وقال بصوت هادئ: "ما نريد بطولة. نريد نوكف ونمشي على أرواحنا. ولي يخاف خلي ينسحب من هسة." لم ينسحب أحد.

في ليلة باردة، تسلّوا بين الأزقة. كانت البلديات نائمة على حزنها. دكاكين مغلقة، وبسطات فارغة، وجدران تحمل صور شهداء. اختاروا المكان الذي ستمرّ منه العربات. كان هوار يعدّ أنفاسه. تذكر أمه في خان بني سعد، وتذكر النهر، والنخيل، والضحكات التي ماتت في عام 2003. قال لنفسه: "اليوم إذا اموت"، ف الحمد لله آخر شيء شفته قوات الاحتلال ينسحبون من الشارع

مرّ الموكب. جاءت العربات المصفحة، ومعها القائد. كان الشارع يبدو هادئاً، لكن تحت ترابه كان القلب العراقي ينتظر. وعند اللحظة التي مرّ فيها الموكب، انفجرت العبوة. اهتزت الأرض، وتطاير الحديد، وارتفع اللهب. سُمع دويّ الانفجار في العبيدي والبلديات، وهرعت سيارات الإسعاف. كانت الخسائر كبيرة. توقف الرتل، وتبدّدت الزيارة الاستطلاعية في غبار أسود

انسحب هوار ورفاقه بين الدخان. لم يتحدث أحد. كانوا يجرون، وقلوبهم تردّد: "يالنارات الحسين". لم يكن في عيونهم فرح طائش، بل دموع مختلطة بالغبار. عرفوا أنهم نجحوا، لكنهم عرفوا أيضاً أن الثمن سيأتي لاحقاً. صار اسم هوار أكبر من رصاصة، وأثقل من جبل. وفي بيت صغير في خان بني سعد، كانت أمه ترفع يديها إلى السماء، لا تعرف أن ابنها كتب ذلك اليوم سطرًا جديدًا على جدار بغداد: أن الطريق الذي يريد الاحتلال أن يجعله آمناً، قد يصير عليه طريق الموت

وفي الأيام التي تلت، تحدثت بغداد همساً

قالوا إن قائداً أمريكياً نجا بأعجوبة، وإن شارع البلديات صار لعنة. أما هوار، فقد عاد إلى مخبئه، يمسح الغبار عن سلاحه، ويحدّق في صورة أمه. لم يطلب وساماً، ولا مجداً. طلب فقط أن تبقى خان بني سعد حرة، وأن يعود النهر كما كان. لكنه أدرك أن الطريق طويل، وأن ثمن الحرية لا يُدفع مرة واحدة. فمنذ ذلك اليوم، صار "هوار" اسماً يمرّ بين البيوت كالنسمّة، ويرتجف منه الغريب. صار حكاية ترويها الأمهات لأبنائهن: أن في العراق رجالاً لا يبيعون الأرض، ولو باعوا أرواحهم

النداء الأخير -3

تحت سماء كركوك الخرساء، كان الليل ينسج أستاره السوداء فوق دجلة والنخل، فيما وقفت ثلة من الرجال في مخبأ ناءٍ، تجمعت في صدورهم حرارة العقيدة وحب الوطن. تقدمهم حسين هادي العقابي، القائد الذي عرفته ساحات المواجهة باسم "هوار"، وبجانبه رفاق السلاح والضمير: علي لعبيبي، محمد قاسم، محمد بدر، وعبد الله جواد. لم تكن وجوههم تشي بالخوف، بل بوقار من يعلم أنه يسير على أطراف المنايا كانت المسيرات والصواريخ الربض في عتمة المكان تستعد للتخليق، وجلس الخمسة في لحظة صمت قصيرة سبقت عاصفة التنفيذ، فنظر هوار إلى رفاقه وقال: "يا علي، جاي تسمع تسمع همس الكاع تحت أقدامنا؟ وعلي تصيحنا.. أتراب العراق مو عادي، لا هذه أمانة اهلنا وأجدادنا وقطعة من روحنا. اليوم". راح نكتب فصل القوة، وماكو مكان للخائف

رد عليه علي لعبيبي وبصيص الشوق للشهادة يلمع في عينيه: "هوار، والله ما طالعين حتى نريد نعيش برغد، طلعنا نكسر هذا القيد الي مقيد حريتنا. أيدينا على زناد المسيرات، وأرواحنا معلقة بالسماء، وما". أنريد بس الشهادة والنصر

ثم التفت هوار إلى محمد قاسم ومحمد بدر وعبد الله جواد وتابع بصوت هادئ ومؤثر محمد، عبد الله.. تدرن أن التاريخ ما يرحم الجبناء، وهاي القواعد كاعدة على قلوبنا وناهيه وطننا " نهيبه لازم يعرفون أن أرض العراق الها رجالها. إذا استشهدنا اليوم، راح يذكرنا النخل، وإذا عشنه، راح "نصنع نصر بثباتنا. أتعاهدونني على الثبات؟

رفع محمد بدر يده واحتضن كف هوار، وقال بثبات وعلي للموت وياك هوار.. الصواريخ والمسيرات الي جهزناها ما تخطي الهدف، وأرواحنا نقدمها " قربان لهذه الأرض الطاهرة

وفي الثالث من كانون الأول لعام 2023، انطلقت الشرارة الأولى. بدقة متناهية وإرادة لا تتزعزع، وجه الرفاق ضربة مسددة وناجحة صوب القواعد الأمريكية. ارتفعت ألسنة الدخان من مواقع المحتل، وعلت تكبيرات الرجال تتحدى ظلام الليل وصفير الرياح. كان النجاح باهراً، وزغردت المسيرات والصواريخ بالالستية في جو السماء متوجة جهوداً طالما خططوا لها في خفاء

لكن الشغف بالدفاع عن العقيدة والوطن لا يعرف المدى أو الاكتفاء. لم يكد غبار العملية الأولى يهدأ حتى اتفق الرفاق الخمسة، بقلوب توافقة وعزائم صلبة، على التحرك فوراً لتنفيذ عملية ثانية في اليوم نفسه، ليزيدوا الضغط على العدو ويؤكدوا أن الأرض لا تستكين

وفي طريقهم للهدف الثاني، كانت الطائرات الأمريكية ترصد تحركاتهم من الأعالي. ومعه صب الطيران أمطاره الحارقة على أجسادهم الشريفة. في لحظة خاطفة، امتزجت أجساد هوار ورفاقه بتراب الوطن الزاكي، واستحال اللحم والدم إلى نور يسري في عروق الوطن

سقط القائد هوار، وسقط معه علي، ومحمد، وعبد الله، ومحمد.. سقطوا كالأشجار الواقفة، مرتقين شهداء أسطوريين، تركوا خلفهم حكاية وفاء لا تمحوها الأيام، وكتبوا بدمانهم الزكية أن الأوطان تعشق حتى الموت، وأن عقيدة الرجال أعتى من بأس السلاح

الشهيد ابو باقر الساعدي

بائع الصور، -1

في زحام السوق ، حيث تتشابك الأصوات وتتزاحم العجلات، كان أبو باقر الساعدي يقف خلف بسطة خشبية صغيرة، تتناثر عليها صور أهل البيت عليهم السلام، كأنها نجوم هبطت إلى الأرض لتضيء وجوه العابرين. لم تكن البسطة مصدر رزق بقدر ما كانت قناعاً ماهراً لرجل يعيش حياة مزدوجة، بين ظاهر تبيع الصور، وباطن يخطط للنار من محتل دنس تراب الوطن.

كانت أصابعه ترتب الصور ببطء متعمد، وعيناه الثاقبتان تلتقطان كل حركة في الشارع. سيارة همر تمر، فيحفظ رقمها. دورية تتوقف عند الزاوية، فيرسم في ذاكرته تفاصيل وجوه الجنود وعددهم. كان يتقن اللعبة ببراعة من عاش سنوأت في حضن الشيخ الشهيد فاضل العمشاني، يتعلم منه أن الجهاد ليس طلقاً وناراً فحسب، بل صبراً وحكمة وتمثيلاً للأدوار.

كان رفاقه يتابعون في الشوارع كخيوط شبكة عنكبوتية دقيقة. صديقه الأول يبيع الجرائد، يقلب صفحاتها بيد، ويراقب بيده الأخرى. والآخر يبيع ملابس البالة، يعلق القميص الرخيص على مسند، ويعلق قلبه على مسمار الانتظار. ثلاثة رجال، ثلاثة أقنعة، وحقيقة واحدة تخفق في الصدور: العراق يستحق أن نضحى من

أجله.

في إحدى الليالي، بعد أن أوصد أبو باقر باب بسطته، جلس مع رفاقه في غرفة ضيقة، على ضوء شمعة خافتة. قال أحدهم بصوت مرتجف: "غداً، العملية في شارع الـ...". نظر أبو باقر في عيونهم، فرأى فيها خوفاً مقدساً، خوفاً لا يضعف، بل يشدد العزيمة. قال: "الشيخ فاضل ربنا على أن الجهاد أمانة، والدم الي". سال منه، راح يبقى دين بعناقنا ونستمر بنهجا حتى نُظهر الأرض

في الصباح، عاد أبو باقر إلى بسطة الصور. مرّ يده على صورة الإمام الحسين عليه السلام، وهمس: "يا أبا عبد الله، كربلاء في قينا وما زلنا فيها". ثم رفع رأسه، وباع صورة لامرأة عجوز، وابتسم لها، وهو يفكر في أن هذه الابتسامة قد تكون آخر ما يراه قبل أن ينطلق نحو المجهول

هكذا عاش أبو باقر ورفاقه، بين بيع الصور وبيع الجرائد وبيع الملابس، يخيطنون أكفانهم بأيديهم، ويرسمون بسماتهم على وجوه المارة، وهم يعلمون أن التاريخ لا يكتب أسماء من باعوا الصور، بل أسماء من صنعوا النصر من رحم الصمت

الواسطة... دعاء عند باب علي -2

في غرفة ضيقة، تفوح منها رائحة الشاي المحروق والقلق، جلس أبو محمد الساعدي أمام كومة من الأوراق. كان رقم "68 ألف" يتراقص أمام عينيه كطيف ثقيل. الدورة التاسعة والسبعون في الكلية العسكرية. ابنه، فلذة كبده، يحمل حلاًماً أكبر من قدرة أب مثقل بالهموم. لم يكن يملك واسطة، ولا اسماً كبيراً يفتح الأبواب الموصدة. كان يعرف أن الطوابير طويلة، وأن الأسماء الصغيرة تُسحق تحت أقدام الانتظار. فرفع سماعة الهاتف واتصل بأخيه الأصغر، أبي باقر

كان أبو باقر رجلاً لا يشبه الضجيج. عاش سنواته الأولى في رحاب الجهاد مع المجاهدين، ثم حمل بعد الاحتلال همّاً لا ينام. لكن قلبه بقي معلقاً بأهل البيت، كان مجاهداً في الحشد الشعبي. لم يكن يحب أن يطلب شيئاً من أحد. كان يرى في الوساطة باباً من أبواب الذل، إلا إذا كانت عند باب الله. ردّ بصوته الهادئ: "هلا خوية، أبو محمد

قال أبو محمد بصوت مبجوح: "وليدي يريد يدخل للكلية العسكرية. والي مقدمين هواي 68 ألفاً. ما عندك". عرف منا بالدولة؟ واسطة قوية

سكت أبو باقر قليلاً. ثم قال بصدق نادر: "لا خوية قسماً بمولاتي الزهراء، ما أعرف واحد وحق هية الزهراء".

أغلقت الكلمة باب الأمل. لكن أبا محمد لم يتوقف. مشى في الإجراءات وحده، قدّم الأوراق، وقف في الطوابير، تحمل شمس الصيف وبرد الانتظار. وفي الليل كان يدعو في سره، ويقول: "يا رب، ما أريد

واسطة، أريد رحمتك.” حتى وصل ابنه إلى الفحص الطبي. هناك، حيث يقف الشباب كأشجارٍ تنتظر الحصاد، توقف قلب الأب بين رجاءٍ وخوف. نظر إلى وجه ابنه الشاحب، ومسح على كتفه، وقال: “لا تخاف، إذا الله يريدك اتصير ضابط اتصير

في تلك الليالي، كان الابن يجلس قرب النافذة، ينظر إلى السماء، ويسأل أباه: هل سننجح؟ فيقول الأب: نحن لا نملك إلا الدعاء. وكانت الأم ترفع يديها بعد كل صلاة، وتقول: يا الله، يا من لا تخب من دعائك

وفي تلك الأثناء، كان أبو باقر في النجف. لم يكن يحمل أوراقاً ولا توصية. دخل حرم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، خلع نعليه عند الباب، وسار بخطواتٍ مرتجفةٍ نحو الضريح. كانت دموعه تسبق كلماته. وقف هناك، ووضع يده على الشباك، وقال بصوتٍ تكسره العبرة

يا ابو الحسن، يا أمير المؤمنين، أنت تعرف اخوي وابنة مقدم على الكلية العسكرية وصل كالفحص الطبي. كون تعبرة بجاهك عند الله، ماعنده واسطة، ولا عرف. وأنت بابُ الله، وشفيعُ الخلق. اجعله من المقبولين.”

لم يطلب من الناس شيئاً

طلب من صاحب القبر. ثم خرج، واتصل بأخيه

رنّ الهاتف في يد أبي محمد. كان التعب يثقل صوته. قال أبو باقر: “اني يم الواسطة والواسطة قوية. وابنك بقوة الله مقبول

”ارتجف أبو محمد: “منو هذا الواسطة القوية ؟

قال أبو باقر وهو يقف عند باب الحرم، والدموع على لحيته: “اني هسة عند أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. زرتُ ودعيتك، ودعيت الابنك حتى ينقبل بالكلية العسكرية. شنو واسطة بالدولة، شنو وزير شنو ضابط جبير، غير هذا ابو الحسنين علي

صمتت الخطوط. صمت أبو محمد، ثم انفجر باكياً. لم يجد كلاماً. بعد أيام، جاءت النتيجة: الابن مقبول في الكلية العسكرية. ثمانية وستون ألف متقدم، وواسطة واحدة لا اسم لها في سجلات الدولة، لكن اسمها في السماء: دعاء رجل مؤمن عند قبر علي

ومنذ ذلك اليوم، صار أبو محمد يقول لكل من يسأله عن الواسطة: “الواسطة القوية ما تنكتب بورقة، الواسطة دمعة عد علي بن أبي طالب سلام الله عليه، وقلب صافي ونظيف يدعي ويتوسل بعلي بالله ما ينخذل.” وكانت تلك أعظم واسطة. حقاً، دائماً

رجل عالي القيمة -3

في بيت صغير في الحبيبية، حيث تتشابك أزقة الفقراء وتتعانق أسطح البيوت ، كان أبو إحسان يعدّ الشاي لضيوفه. لم تكن جلسة عابرة، بل كانت غرفة طوارئ لعائلة تكاد تمزقها مشكلة. الأخ الأصغر دهس شابًا، والدّم لا يزال ساخنًا على الأسفلت، والقلوب ترتجف من عاقبة الأمر. جاء ابا محمد، الأخ ابا باقر ، يحمل همّه على كتفيه. وجاء أبو باقر، أهدأ منه، لكنه الأثقل في الميزان

جلسوا. تحدثوا. عدّوا المال على الطاولة. كان أبو باقر يدفع أكثر من الجميع، لا لأنه الكريم والسخي ، بل لأنه الأرحم. كان يقول: المال يذهب، والدّم لا يذهب. لنطيّب خاطر أهل الشاب، ولنعتذر نيابة عن أخينا

خرجوا جميعًا نحو بيت الشاب. كان المسير ثقيلًا، كأن الشوارع تعرف أن خطواتهم ذاهبة لتطفئ نارًا. دخلوا. جلسوا. تكلم الكبار. وُضع المال. لكن أبا باقر لم يكتف. تقدّم نحو الشاب، انحنى، وقبل جبينه. ثم رفع رأسه، وأدخل يده تحت الوسادة، ووضع مبلغًا آخر. وقال بصوت خفيض كأنه يخاطب قلبه: هذا لك. لكن أريد منك شيئًا واحدًا: ادع لي أن أعود إلى عائلتي سالمًا

نظر الشاب إليه. لم يفهم تمامًا لماذا يطلب رجلٌ هذا الطلب. لكنه رأى في عيني أبي باقر شيئًا غريبًا، شيئًا كأنه وداع

عادوا. جلسوا في بيت العم. سؤالٌ هنا، وضحكةٌ هناك، وصلةٌ رحم تُرمّم. ثم قام أبو باقر. قال: أنا ذاهب. ترك أخاه أبا محمد في البيت، وخرج. عند الباب كان ابنُ العم واقفًا. تمازحًا قليلًا، ضحكا. ثم أمسك ابا باقر رقبته ابن عمه، وقبله. وقال مبتسمًا: اي آخر قبلة لك. بس لا تحجي لبو محمد

لم يفهم ابن العم. ظنها مزحة. لكنها لم تكن

مشى أبو باقر إلى سيارته. الطريق إلى بيته قصير. قصير جدًا. قريب من المنزل، حيث يبدأ القلب بالطمأنينة، حيث تلوح نافذة البيت، وينتظر الأطفال. هناك، في تلك المسافة القصيرة، جاء الصوت. انفجار. نار. ثم صمت

سقط أبو باقر شهيدًا. على مسافة قريبة من بيته. قريبة جدًا. قريبة حدّ أن يسمع أهله الصوت ولم يستطيعوا اللحاق به

وفي اليوم التالي، جلس أبو محمد في زاوية من بيت عمه، يحدث نفسه بصوتٍ مبجوح: لماذا قبل الشاب؟ لماذا طلب الدعاء؟ لماذا ودّع ابن عمه بقبلة قال عنها الأخيرة؟

ثم أدرك، متأخرًا، أن أخاه لم يطلب الدعاء من أجل نفسه فقط. كان يرى الطريق. كان يشتم رائحة الشهادة في الهواء، ويجمع خطواته الأخيرة كما يجمع المسافر زاده. كان يعلم أنه لن يعود، فذهب ليودّع الناس واحدًا واحدًا، بلا كلامٍ ثقيل، بلا وداع صارخ. قبلةٌ هنا، وابتسامةٌ هناك، ومالٌ يوضع تحت وسادة شابٍ لا يعرفه، لعلّ دعوته تكتب له في السماء

تذكر أبو محمد ما قاله له أخوه في الطريق: لا تحمل همًا. الأمور ستحل. وقال له أيضًا، وهو يضحك: أخي، إذا غبت يومًا، لا تنس أن تدعو لي. ظنّها مزحة

لم تكن مزحة

في الحبيبية، بقيت تلك الليلة معلقة في الذاكرة. بقيت الطاولة التي شربوا عليها الشاي، وبقيت الوسادة التي وضع تحتها المال، وبقيت رقبة ابن العم التي لمسها أبو باقر قبيل الرحيل

كان أبو باقر رجلًا يعرف أن الحياة قصيرة، وأن الطريق إلى الله لا يحتمل التأجيل. عاش سنواته الأولى في الجهاد مع الشيخ الشهيد فاضل العمّشاني، ثم حمل بعد الاحتلال همًا لا ينام. ولم يكن يخاف الموت، بل كان يخاف أن يموت وفي قلبه شيء لم يقله لأحد

لهذا قبل الشاب. لهذا دفع أكثر من الجميع. لهذا طلب الدعاء. لهذا ودّع ابن عمه بقبلة لم يفهمها أحد إلا بعد أن سقط

وفي المسافة القصيرة بين بيت العم وبيته، انتهى كل شيء. لم يصل إلى الباب. لم ير النافذة. لكنه وصل إلى شيء آخر، إلى مكان لا تُقصف فيه السيارات، ولا تحكمه طائرات الاحتلال

بقي اسمه. بقي دعاء الشاب الذي ربما دعا له في ليلته. وبقيت وصية صامتة: أن الواسطات كلها تذهب، إلا واسطة عند باب لا يُغلق

أما تلك القبلة الأخيرة، فلا يزال ابن العم يلمس رقبته كلما تذكر، كأنها وُضعت هناك لتقول: كنت أحبكم حتى آخر خطوة

الشهيد حيدر حسن السعدي (مجتبي)

صلاتي في الصحراء -1

كانت الشمس تغرب خلف كثبان الرزازة كجمرة تلف ببردها الأخير، حين كان حيدر يعدّ صندوق الإمدادات للمرة الثالثة ذلك الأسبوع. السيارتان اللتان كانتا تنقلان المؤن تعطلتا، فبات الطريق الطويل بين جرف النصر والرزازة يسلك على متن همر عسكرية ، لا مكيف فيه ولا ظلّ، فقط الصحراء تمتد كبحر جامد تحت سماءٍ يابسة.

حيدر حسن السعدي، الذي عُرف بين رفاقه بـ"مجتبي"، لم يكن فارح الطول، ولا جهوري الصوت، لكنه كان يملك شيئاً آخر: تلك الابتسامة الخفيفة التي لا تفارق شفّتيه، كمن يعرف سرّاً لا يعرفه غيره. كان عمره آنذاك في الثلاثين، لكن الغبار والحرب جعلاه يبدو أكبر بعشر سنين. يضع على كتفيه رشاشاً خفيفاً، وحقيبة قماشية ممتلئة بالتمر والطعام الجاف، وقنينات ماء لا تكفي إلا لأربعة رجال، لكنه كان يحملها كأنها أسرارٌ لا يجب أن تسقط في غير موضعها.

في صباح اليوم الخامس عشر من شهر حزيران، بينما كان يستعد للانطلاق، سمع خطوات صديقه عامر من خلفه. عامر كان رجلاً طويلاً ، عيناه واسعتان كأنهما تبحثان دائماً عن شيء يخفيه المقاتلون الآخرون. أمسك بكتف مجتبي برفق، وقال بصوتٍ اختلط فيه اللهجة العراقية ولهات الحرّ:

مجتبي... ليش كل هذا المشوار؟ أربعين كيلو يا أخي. أربعين! اكو غيرك يقدر يوصلها. إنت صاير مثل –
البريد اللي ما يتعب

ابتسم مجتبي دون أن يلتفت. كان ينظر إلى الأفق البعيد، حيث يختلط الغبار بالضوء الأول، ثم قال بهدوءٍ غريب:

عامر... أنت فكرت يوماً ليش كربلاء هي كربلاء؟ –

سكت عامر، فاستدار إليه مجتبي، ووضع يده على صدره، وقال:

أني ما أروح الرزازة على مود أوصل المأونة . أنا أروح على مود أحس إني صرت جزءاً من السياج –
. اللي يحمي الضريح من بعيد. أربعين كيلو والمسافة... هي صلاة ماشية عاشورانية

وفي تلك اللحظة، شعر عامر أن الأرض تحت قدميه قد اهتزت قليلاً، ليس من زلزال، بل من ثقل الكلمات.
:أراد أن يرد، لكن مجتبي سبقه

تذكر لما كنا شباب ونروح زيارة الأربعين مشي؟ الطريق كان طويل، والحر أشدّ، وكنا نحس إن أقدامنا –
تنزف، لكن قلوبنا كانت ظاهرة . هسه كل يوم امشي ، والموت حولي . بس لما أوصل نص الطريق وأنزل
من السيارة، وأفرش السجادة الصغيرة على الرمل، وأصلي الفجر أو المغرب وحدي... والله يا عامر، إني
أحس مو وحدي

:رفع صوته قليلاً، وهو يلوح بيده نحو الصحراء الفارغة

أشعر بأصحاب الحسين حولي. مثل ما صلّوا في كربلاء في يوم عاشوراء، في أرضٍ قاحلة، ما معهم –
ماء ولا ظل، بس كانوا يعرفون إن الأرض تشهد لهم. أنا يوم أصلي في الرمل، وأعفر جيبني بالغبار،
وأقول "الله أكبر" وصوتي يرجع من كل صخرة... أحس إن السماء تفتح لي، أحس إن الحسين ينظر إليّ

صمت مجتبي، ونظر إلى عامر بعينين لم تكن تدمع، بل كانت تتوهج بذلك النور الذي يراه المقاتلون قبل أن
يرحلوا

:عامر تنفس بصعوبة، كمن يبلع جرعةً من الحرّ، ثم قال بصوتٍ مبجوح

.طيب... إذا إنت تحس هالشعور... خليني أنا أروح مرة. خلّني أحس بشوية من هالشي –

:ابتسم مجتبي ووضع يده على كتف عامر

إنت حارس الجرف، يا عامر. مكانك هنا، تحمي ظهرنا. كل منا له صلاة في مكانه. صلاتي في الرزازة، –
وصلاتك هنا في جرف النصر. كلها لله ولكربلاء

ثم صعد إلى السيارة، وأدار المحرك الذي تذر كجملٍ معتق، وانطلق في الطريق الترابي. لم يلتفت إلى
الوراء، لكن عامر ظل واقفاً ينظر، حتى غابت السيارة في الغبار، كأنها قطرة حليبٍ تذوب في قهوةٍ سوداء

:في تلك الرحلة، كان مجتبي يردد دعاءً قصيراً كان يحفظه عن والده

اللهم اجعل هذه الخطوات في سبيلك، وهذا التراب شاهداً لي، وهذه السماء سقفي، وهؤلاء الرجال "
الشهداء حولي أحياء عندك

وصل إلى الرزازة بعد ثلاث ساعات من المطبات والحرّ والغبار. نزل من السيارة، وسلّم الإمدادات إلى
المقاتلين الذين استقبلوه كأنه ملاك يأتي بالرزق. جلس يتحدث معهم لبعض الوقت، ثم قام ليصلي العصر
.في الرمل، كما كان يفعل دائماً

تفهمت. أريد قصة مؤثرة عن برّه بوالديه وعمته، دون نهاية استشهاد، فقط سرد لروحه الطيبة وعلاقته بهم، مع لمسة أدبية دافعة، بـ 850 كلمة بالضبط تقريباً

ريخ الجنوب -2

في بيتٍ صغيرٍ بأزقة بغداد ر، كان حيدر حسن السعيدى يعرف منذ طفولته أن الحب الحقيقي لا يُعلن، بل يُعاش. كانوا ينادونه مجتبى، لأن أمه رأت في منامها أنها تنادي الحسين بن علي عليه السلام، فقال لها: "سمّه مجتبى، فهو من المجتبين." ولم تكن تعلم الأم أن الاسم سيصير قدراً، وأن الولد سيكبر ليصبح رجلاً يحمل في قلبه من البر ما يحمله أصحاب الأئمة

كان مجتبى الابن المميز للعائلة ، لكنه لم يتعال يوماً على إخوته، ولا تذر من قسوة العيش. والده حسن، رجل طاعن في السن، تعبت ظهره من حمل الطوب في أيام شبابه، فصارت عظامه تنن مع كل تغيير في الطقس.

وكانت والدته خديجة ، امرأةً نحيلة الجسم، عظيمة الروح، كانت تبصر بعيني قلبها أكثر مما تبصر بعيني رأسها، إذ كانت تفقد بصرها شيئاً فشيئاً بسبب السكري، لكنها كانت ترى مجتبى من بعيد، وتقول: "هذا .ابني، أعرفه من خطواته، كأن الأرض تهمس تحت قدميه

ومع أن الحياة في جرف النصر بعد الحرب لم تكن سهلة، بقي مجتبى باراً بوالديه . كان يستيقظ قبل الفجر، يُعد إبريق الشاي، يضع السكر بمقدار معين لأن أباه يحبه ثقيلًا، وأمّه تحبه خفيفًا. كان يعرف عاداتهم كأنها سور من القرآن يحفظه عن ظهر قلب

لكن كان لعمته شقيقة أبيه- مكانة خاصة في قلبه. كانت سيدة كبيرة تُدعى "أم مهدي"، أرملة وام لشهداء ، تعيش معهم . كانت روحها تشبه الحمامة التي تجلس وحيدة على السطح، لا تزعج أحداً ولا تطلب شيئاً. كانت صامتة في الغالب، لكنها إذا تحدثت، كان كلامها كالمر في أيار، خفيفاً لكنه يُحيي كل شيء

كان مجتبى يجلس عندها كل يوم، لا يتخلف أبداً. يحمل لها حكايات أبطال جرف النصر كان يجلس إلى جانبها على الأرض، يمسك بيدها، ويضعها على رأسه، ويقول

.عمة ، ادعيلي –

وكانت ترفع يدها الأخرى إلى السماء، وتهمس بدعاء لا يسمعه إلا الله ومجتبى، ثم تمسح على شعره وتقول:

روح يا ابني، الله يحميك. أنت ربح الجنوب اللي ترويني –

وفي أحد أيام الربيع، كانت العجائز يجلسن أمام البيوت ينتظرن نسمات المساء، مرضت العمّة أم مهدي مرضاً شديداً. أصيبت بحمى لم تهدأ، وصارت تهذي في منامها. والجميع في العائلة مشغول بالمعيشة ، وبعضهم يعدّ العتاد لأن طوبول الحرب مستمرة

لكن مجتبي تخلص عن كل شيء. كان يجلس بجانب سريرها ليلاً ونهاراً، يضع كمادات الماء البارد على جبينها، يقرأ لها آيات القرآن بصوته الهادئ، ويحدثها عن أيام شبابها لعلها تفيق وتضحك

:في إحدى الليالي، وقد اشتدت الحمى، همست العمّة بصوتٍ خافت

.حيدر... مجتبي... خايفة أموت وحدي –

هنا لم يتمالك مجتبي نفسه. ضمّ رأسها إلى صدره، ودمعته تسقط على خدها كقطرة ندى، وقال بصوتٍ يرتجف لكنه مليء بالحزم

عمّة ، إنت مو وحدج. اني اهنأ . اني ما أرضى تموتين واني بعيد. اني جنت أروح للجرف على مود –
أحمي كربلاء، وحمي قلبج

.سكنت العمّة، لكنها فهمت. كان يعرف كيف يضعها في مرتبة كربلاء، وكأنها سيده من سيدات أهل البيت

ومضت الأيام. تعافّت العمّة، وقامت من فراشها كأنها عادت إلى الدنيا من جديد. أول ما فعلته أنها مشت إلى بيت مجتبي، وجلست أمام والدته خديجة ، وقالت لها بصوتٍ يقطر شوقاً

خديجة ... حسيون هذا شكك بار الحج والأبو .. هذا مثل الساقى يوم عاشوراء،كل همهم يسقيس حتى ما –
يضماً

:خديجة ، التي كانت تحب ابنها بجنون، اكتفت بالابتسام وقالت

.هذا حسيون . هو دائماً يحس إن مسؤوليته حماية كل الناس. يحس نفسك الحارس صغير لبيت كبير –

:أما والده حسن، فكان في المساء، بعد صلاة المغرب، يأخذ حسن جانباً ويقول له

بويا ، كثرت مشاويرك للسوق وللبيت عمتك. إنت تريد ترضي الكل. بس سألت روحك مرة: منو يرضيك؟ –

:فيضحك مجتبي ويجيب

بويا ، أنا مرتاح من أشوفكم مرتاحين. ماكو احلا من إن الواحد يحس نفسه سند لأهله. يوم أروح –
للجرف وقوم بواجبي، أحس إنى أحمي كربلاء. ويوم الي اكعد بي ويا أمي وياك ويا عمتي، أحس إنى بجنة

. صغيرة. وأنا مقتنع إن الجنة تحت أقدام الأمهات والعَمَّات اللي فقدوا عيالهم، صارت عمتي أمي الثانية

وفي كل أسبوع، كان لمجتبى عادة لا يتركها أبداً: كان يجمع كل أفراد أسرته -والديه وعمته وإخوته- في الدار الصغيرة، ويصنع لهم الشاي، ويحضر بعض الكعك، ويجلس في وسطهم يحدثهم عن أحلامه. لم يكن يتحدث عن الحرب، ولا عن الخوف، بل عن كربلاء، عن الإحساس الغريب أنه كلما مشى في الصحراء، شعر بأن خطواته ليست خطواته، بل خطوات ملايين من المشاة الذين ساروا إلى الحسين

:وكان يختم حديثه دائماً بعبارة

اني ما أخاف من الموت. اني أخاف أموت وحدي بدون ما أكون خدمت أحد. وكل ما أخدم أمي وأبي – وعمتي والناس، أحس إنني خدمت الحسين

:كانت العمّة أم مهدي تضحك من قلبه وتقول

.هذا وليدي ... ريح الجنوب –

والريح لا تموت. هي تبقى تهبّ حيثما كانت، تحرك الزرع، وتذكر الناس بأن الخير موجود، وأن في قلوب الرجال الصغار سعة للسماء كلها. مجتبي كان ريحاً، لكنه ريح طيبة، لا تحمل غباراً، بل تحمل دعاءً وأملًا، وحبًا لا يموت، حتى لو طال الغياب أو قصرت المسافات

حبُّ الودّ -3

في جرف النصر، حيث كانت الشمس تعضّ الظهرَ عضّاً، والغبار يغطّي كل شيء كأنه رداءٌ ثقيل، كان هناك رجلٌ لا يعرف معنى القطيعة. اسمه حيدر حسن السعيدى، لكن الكل كان يناديه بـ "مجتبى"، ليس تيمناً باسم فحسب، بل لأنهم رأوا فيه من صفات المجتبيين ما لا يُوصف: كان يحمل هموم الآخرين كأنها همومه، ويتذكر الغائبين كأنهم أمام عينيه، ويسأل عن المتأخرين كأنه أمٌ تنتظر أبناءها في آخر النهار

كان مجتبى يعرف أن الحرب ليست مجرد معارك تُخاض بالسلاح، بل هي أيضاً معارك تُخاض بالقلب، ببقاء الخيط الرفيع الذي يربط بين المقاتلين، حتى لا يتحولوا إلى جزرٍ منعزلة في بحرٍ من الغبار والرصاص. كان يرى في الصداقة أكثر من مجرد علاقة عابرة، بل ركيزة تثبت بها الجبهات، ودفعاً يمنع الروح من التجمّد في ليالي الخوف الطويلة

كان أقرب أصدقائه عامر، شاب في الثلاثين، ووجهه اسمر ، لم يذق طعم النوم منذ أشهر. كان عامر هادئاً، ربما أكثر من اللازم، يميل إلى العزلة، ويتحدث قليلاً، لكن عينيه كانتا تتكلمان عن بحرٍ من الأشياء التي لا يقولها. وكان مجتبي الوحيد الذي يعرف كيف يقرأ ذلك البحر.

ذات مساء، في شهر أيار حين كانت الحرارة تتراجع قليلاً لتفسح المجال لنسيم خفيف، لاحظ مجتبي أن عامر لم يحضر إلى نقطة التجمع المعتادة. تأخر ثلاث ساعات. كان ذلك غريباً، لأن عامر كان دائم الانضباط، ربما أكثر من أي مقاتل آخر. لم يقل مجتبي شيئاً لأحد، لكنه أخذ هاتفه ك، واتصل بعامر. رن الهاتف مرات، ثم سمع صوت عامر المكتوم

آلو... مجتبي؟ –

وينك يا عامر؟ كلنا جايين، وبس أنت ماكو –

سكت عامر للحظة، ثم قال بصوت يُسمع فيه التعب

. مجتبي... أنا بالسيارة. وكفت على الطريق، ما وما كدرت أكمل. ما أدري شنو بيها –

لم ينتظر مجتبي أكثر من ذلك. قال

وين مكانك بالضبط؟ –

قرب الكيلو ٢٢، عند الجسر الصغير –

لا تتحرك. أنا جاي –

أطفأ مجتبي الهاتف، وصعد إلى سيارة (الحوثية) ، واندفع في الطريق المظلم. لم يكن يهمه أن الطريق خطير، أو أن الليل يخبئ ما لا تعرفه العيون، كان يهمه فقط أن صديقه واقف وحيداً في الظلام

وصل بعد أربعين دقيقة. وجد عامر جالساً على حافة الطريق، ينتظر قدوم مجتبي. نزل مجتبي، وجلس بجانبه دون أن يتكلم لدقائق. ثم وضع يده على كتف عامر وقال

شو صار؟ –

رفع عامر رأسه. كانت عيناه حمراوين من التعب ، قال بصوت مبجوح

ما أدري، مجتبي. من يومين حسيت إن الروح طارت مني. كل ما أحاول أنام، أذكر أمور غائتني . كل ما – أروح الجبهة، أحس إنني رايح لمكان ما راجع منه. وما عندي أحد أكلمه... كل الشباب مشغولين بحالهم

:ابتسم مجتبي ابتسامته الخفيفة التي لا تفارقه، وقال

. إنت غلطان، يا عامر. كل الشباب مشغولين بحالهم؟ شوفني. أنا جاي من جرف النصر على مودك –

نظر إليه عامر، وكأن كلمة "على مودك" فتحت فيه بابًا كان مغلقًا

:سأله مجتبی

. عامر، أنت ليش ما اتصلت بيه من أول؟ إنت تعرف إني ما أنام إلا بعد ما أسأل عن الكل، وعنك بالأخص –

:فقال عامر بصوتٍ قد كاد أن ينكسر

. ما حبيت أكون ثقيل. الكل عنده همومه، والكل يحارب شيطانه الخاص –

:هنا ضحك مجتبی بصوتٍ مسموع، وقال

أنت ثقيل؟ يا عامر، أنت أخف روح في الجبهة كلها. بس إنت ساكت . والسكوت يخلي الوحدة تكبر، –
والوحدة تأكل الرجال أكل. تعال، وكوم، اركب وياي، نروح إلى المخيم، وننعشى سوية، وأني احبيلك نكتة . سمعتها من عمتي أم مهدي، تضحك حتى الحجر

قام عامر، وصعد إلى السيارة، وفي الطريق كان مجتبی يتحدث عن أيام الطفولة، عن جدتهم التي كانت تزرع البامية، عن أمه التي كانت تخبز خبز التنور وتوزعه على الجيران، عن أشياء صغيرة لكنها كانت كافية لتعيد الدفء إلى صدر عامر

ومن تلك الليلة، أصبح عامر ينتظر اتصال مجتبی كل مساء. لم يكن يتصل مجتبی ليسأل فقط عن الأحوال، بل ليقصّ عليه خبرًا، أو ليسمع صوته، أو ليسأله: "كيف نومك الليلة؟" أو "هل أكلت اليوم؟" وكان عامر يندهش كيف لرجلٍ في خضمّ الحرب، وفي أرضٍ تنن من القصف والغبار، أن يكون لديه كل هذا الوقت ليحتضن أصدقاءه بقلبه قبل ذراعيه

وفي مرةٍ من المرات، رأى مجتبی أحد المقاتلين الجدد، وكان شابًا صغيرًا، لا يتجاوز العشرين، جالسًا منعزلًا في زاوية المخيم، ينظر إلى السماء كأنه ينتظر شيئًا لا يأتي. مشى إليه مجتبی، وجلس بجانبه، وقال:

شنو اسمك؟ –

. علي –

أنت جديد، صح؟ –

. إي –

. ليش كاعد وحدك؟ تعال ويانه ، الشباب يسولفون ويضحكون ، ومسوين خوش جاي –

:نظر إليه الشاب، وقال

.ما أعرف أحد... احس روعي غريب –

:ضرب مجتبي على كتفه وقال

إنت مو غريب. كلنا اخوه اهنا . بس إحنا ناس نعرف بعض بالأسئلة. اني مجتبي، وذاك هناك عامر، – وهو صاحبي من سنين. أنت هم صارت صاحبي من هسه

:ثم أخرج هاتفه، وقال

. خذ رقمي. أي وقت تحس وحدك، اتصل بيه . حتى لو الساعة ثلاثة الفجر –

الشاب علي لم يقل شيئاً، لكنه أخذ الرقم، ومنذ تلك الليلة، كلما شعر بغصة في صدره، كان يتصل بمجتبي. ومجتبي كان دائماً يجيب، وكأنه كان ينتظر المكالمة

في إحدى الأمسيات، كان عامر جالساً مع مجتبي، يشربان الشاي، والغبار ينساب من حولهما كشلال خفيف. نظر عامر إلى مجتبي، وقال

اكلك مجتبي، انت شلون تستوعب كل هذا؟ شلون تتحمل أسئلة الناس وهمومهم، وتتصل بالي يتأخرون – ، وتكد ويا الجديد، ردور عليه من أتعب؟ إنت مو بس مقاتل ، أنت مستشفى متنقل

:ضحك مجتبي، وقال

.عامر، اني ما عندي شي –

عندي فقط هذا الموبايل ، وهذه الأصابع الي تكتب، وهذا القلب الي يخاف على الناس. ليش؟ لأنه لو انقطع الحبل بيننا، صرنا مجرد أرقام في كشفية، ومجرد أسماء على قبور. أنا ما أريد هالشي. أنا أريد يكون بينا حبل المودة ، حتى لو ما شفنا بعض، نعرف إن في طرف ثاني يشد الحبل لما نضعف

:سكت عامر، وأخذ رشفة من الشاي. ثم قال بصوت هادئ

. إنت حبل الود بين كل هالقلوب، مجتبي. لو يوماً انقطع الحبل... ما أدري كيف الناس اتصير –

:ابتسم مجتبي ونظر إلى الأفق البعيد، إلى حيث تمتد الرمال كحلم لا ينتهي، وقال

الحبل ما ينقطع، يا عامر. لأنه ما مصنوع من خيط، مصنوع من سؤال، ومن اتصال، ومن تذكر الغائب – قبل ما يسأل. ويكفي انو انكون سند البعضنا

:وفي تلك الليلة، كتب عامر في مسودة صغيرة على هاتفه، كلمات لم يرسلها لأحد

"مجتبى ليس مجرد صديق، هو الإشارة التي تذكرني بأنى لست وحدي في هذه الصحراء"

ضحكة الفجر الأخير -4

في ليلة باردة من ليالي تموز ، جلس حيدر في زاوية الغرفة ، يمسح بكمّ غبار التراب عن وجهه. كان يعلم أن الغد ليس كسابقه، أن المعركة التي سيخوضها ستكون الأخيرة. إلى جواره، رفاقه الأربعة: علي الموسوي، حسين كريم، والقائد أبو حسن المالكي، كانوا يتهيأون لموعدٍ لا مفر منه

قبل ساعات من الفجر، أخرج حيدر هاتفه والتقط صورةً لهم جميعاً، وهم يبتسمون رغم جراح المعركة . ثم همس لرفيقه: "إذا لم أعد، انشر هذه الصورة. دع الناس ترى أننا كنا هنا، أننا أحببنا الحياة لكننا آثرنا الوطن".

في الفجر، انطلقت المسيرات كالسيول. كانوا أربعةً في مواجهة عدو غادر . سقط علي الموسوي أولاً، وهو يردد دعاءً قديماً. تبعه حسين كريم، وكان وجهه يضيء كالقمر في ليلةٍ عاصفة. أما القائد أبو حسن، "فظلّ صامداً حتى اللحظة الأخيرة، يصرخ بأعلى صوته: "هذه أرضنا، ولن يخذلها أحد

أما حيدر، فكان آخرهم. رأى رفاقه يتساقطون واحداً تلو الآخر، فابتسم، وسحب قبضته نحو السماء، ثم سقط كغصنٍ طريّ. لم يبقَ منهم أحد

بعد أيام، نشر الرفيق الصورة. كانوا أربعةً في إطارٍ واحد، وكأنهم يضحكون في وجه الموت. علّق أحدهم: "هذا ليس مجرد شهداء، هذه رسالة". انهمرت الدموع على وجوه من رأوا الصورة، ليس حزناً فقط، بل إعجاباً ببسالةٍ لا تُضاهى

وفي كلّ عام، حين تقترب ذكرى رحيلهم، تعود تلك الصورة لتنبض حياةً جديدةً في قلوب الأحرار. لأن الشهيد لا يموت حقاً، بل يظلّ حياً في ذاكرة من يحبونه، وفيّاً لأرضٍ قدسوها بدمائهم

الشهيد سمير القنطار (عميد الاسرى)

ثوب الكرامة -1

في صباح السادس عشر من تموز 2008، وقف الزمن على عتبة سجن إسرائيلي، يترقب لحظة انتظرها وطنٌ كامل ثلاثين عاماً. كان سمير القنطار يُستدعى للخروج، لكنه لم يكن مجرد أسير يُطلق سراحه، بل كان حكاية صمودٍ تُوشك أن تُروى للعالم.

جاءه الضابط الإسرائيلي مصطحباً إياه نحو السيارة، ملوّحاً بملابس النوم التي كان يرتديها. أراد أن يُخرج أسطورة المقاومة بثوب المهانة، أن يطمس ثلاثين سنة من العزة بلقطة إذاعية. لكن سمير، الذي شرب من كأس الصبر حتى الثمالة، أدرك اللعبة في لمح البصر. وقف كالجبل، رفض أن تمسّ كرامته.

قال بصوت هادئ لكنه زلزال: لن أخرج إلا بملابسي.

أصرّ الضابط، وأصرّ سمير. تدافع الجنود، حملوه بالقوة، لكنه قبل أن يركب السيارة، ضرب قدمه في الأرض، غرسها كجذرٍ في تراب الكرامة، رافضاً أن تُقتلع. توقفت الصفقة، تأخرت الساعات، وبقي سمير كالنخلة التي لا تنحني. كان يعلم أن ثمن ثلاثين سنة لا يُدفع بقطعة قماش، لكنه أيضاً يعلم أن كرامة السجين تُفاس بما يرتديه حين يخرج.

انهزم الضابط الإسرائيلي أمام إصرار رجلٍ لم تنهزم روحه قط. أحضروا له بنطالاً جينزياً وكنزة رمادية اللون، كأنها قطعة من الغيم الحزين. ارتداها سمير، لا لأنها أجمل، بل لأنها حرة. خرج بها من بوابة السجن، وخرجت معه ثلاثون سنة من الجرح والكبرياء.

اكتملت الصفقة. خمسة أسرى لبنانيين، وعلى رأسهم سمير القنطار، يعبرون الحدود نحو وطنٍ لم ينسَهم. وفي ملعب الراية في الضاحية الجنوبية ببيروت، تجمع الآلاف، تتقدمهم الأعلام والهتافات. خرج سمير للجمهور بزي المقاومة العسكري، حاملاً راية النصر، كأنه لم يكن سجيناً منذ لحظات، بل كان دائماً قائداً في معركة الحرية.

رفع الراية عالياً، وهتف الجمهور. لم يكن الثوب العسكري مجرد زي، بل كان إعلاناً بأن الثلاثين سنة لم تكسر إرادة رجلٍ آمن أن الكرامة أغلى من الحياة. وفي تلك اللحظة، فهم الجميع أن سمير لم يخرج من السجن فقط، بل خرج من رحم المعاناة ليولد من جديد، رمزاً لكل أسير، ووعداً لكل وطن بأن الحرية قادمة، مهما طال الليل.

وهكذا، بين ثوب النوم الذي أرادوه له، وثوب المقاومة الذي اختاره، وقفت قصة سمير القنطار شاهدة على

أن الإنسان حين يتمسك بكرامته، لا تهزمه القضبان، ولا تكسره السنين
حين مَرَّقَ الكبرياء -2

بعد أن خرج سمير القنطار من السجن، لم يعد رجلاً عادياً يمشي على الأرض. صار حكايةً تتناقلها المنابر، ورمزاً يتزاحم عليه الناس. كل احتفال أراد أن يتوّج اسمه، وكل محفل سعى لأن يكون له شرف حضوره. كان يُدعى فيلبي، لا لأنه يحب الأضواء، بل لأن الحضور واجبٌ على من صار صوت الأسرى في كل زنزانة.

وكانت الهدايا تتوالى. مبالغ مالية كبيرة، بيوت، سيارات، عطايا تليق بأسطورة. لكن سمير كان يبتسم ويرفض. يقول بذلك الصوت الهادئ الذي يشبه صوت الأرض: المقاومة لا تُقدَّر بثمن. كان يعلم أن الهدايا في الشرع مباحة، وأن غيره كان يقبلها بكل أريحية، لكن كبرياءه الذي صار جداراً منيعاً عبر ثلاثين سنة، كان يرفض أن يُشترى. لم يكن سمير يرفض المال، بل كان يرفض أن تُختزل قضيته بأوراق نقدية.

وفي إحدى الحفلات، حضر رجل أعمال سوري. رجلٌ جمع الملايين، وأراد أن يخلد اسمه بجانب اسم سمير. فكتب شيكاً بمبلغ ثلاثة ملايين دولار، وناولته إياه أمام الحضور. ساد الصمت، وترقّب الجميع. كان حراس سمير يراقبون، ينتظرون قراره. أما هو، فأخذ الشيك بيدٍ ثابتة، نظر إليه لحظة كأنه يتأمل وهماً باهتاً، ثم ابتسم. ابتسامة رجلٍ لا يعرف التراجع.

وقف، ومَرَّقَ الشيك.

تمَرَّقَ أمام أعين الحاضرين، قطعتان، ثم أربع، كأنها زوبعة من ورقٍ لا قيمة له. ابتسم مرة أخرى، وأكمل الحفل. لم يقل كلمة، لم يخطب، لم يشرح. كانت يداه تتحدثان بدلاً عنه، تقولان لكل من يسمع: هذا الرجل لا يُشترى.

وصل الخبر إلى سماحة الأمين العام السيد حسن نصرالله. جلس يستمع، وأعجب. لم يكن الإعجاب بما فعله سمير فقط، بل بما يعنيه. رجلٌ خرج من سجن الاحتلال بعد ثلاثين عاماً، وعاد ليحمل ذاته كما حملها وهو في الزنزانة. لم تلوّثه الحرية، ولم تُذبله الهدايا. كبر سمير في نظر السيد، ليس لأنه رفض المال، بل لأنه أثبت أن الكرامة أثنى من كل شيء.

وفي أول لقاء بينهما، استقبله السيد حسن بابتسامة رجل عرف قيمة من أمامه. قال له: يا سمير، فعلك في الحفل كان درساً للجميع. المال يُشترى به الناس، لكنك اشتريت نفسك. وأين؟ في زمنٍ قلّ فيه من يرفض. أنت لم تخرج من السجن فقط، بل خرجت محملاً بكرامتك كما دخلت بها.

سمير، الذي لم يعد يتقن الكلام الكثير، نظر إلى السيد وقال: سيدي، ثلاثون سنة علّمتني أن الرجل يُقاس بما يرفض، لا بما يقبل. ولو أخذت ذلك الشيك، لكان الاحتلال قد ربح مني ما عجز عن أخذه بالقضبان.

ابتسم السيد، وأطرق قليلاً، ثم قال: لهذا أنت سمير. لهذا أنت الرمز. المال يشتري الوجوه، لكنه لا يشتري الرجال الذين مثلك.

أنت قلت كلمة واحدة في وقتٍ كان فيه السكوت أبلغ، ومزقت الشيك كما مزقت سنوات الأسر كل محاولات الإذلال.

وهكذا، بين حفلة مزقت ورقاً، وثلاثين سنة مزقت جسداً، بقي سمير القنطار الرجل الذي لم يبيع نفسه. تعلم الناس من فعله أن المقاومة ليست سلاحاً فقط، بل روح تقول لا في وجه كل من يظن أن الكرامة تُشتري.

قفصان وباب واحد للحرية -3

في الأول من آذار عام ألفين وتسعة، تزوج سمير القنطار من الإعلامية زينب برجايوي. كانت أيامهما الأولى قصيدة حب هادئة، وبعد سنتين من الحياة الزوجية السعيدة، رزقا بمولود أسمياه علياً. صار علي عزيزاً على قلب سمير، وكان ينفذ طلباته كلها، لا يرفض له طلباً، كأنه يعوّضه عن سنوات لم يعيشها سمير. وفي يومٍ من الأيام، خرج سمير وزوجته وعلي للفسحة. وفي الطريق، رأى علي بلبلأ يغرد فوق غصن. توقف، وطلب من والده أن يشتريه. لبي سمير الطلب فوراً، واشترى البلبل مع قفصه الجميل. عادوا إلى المنزل مسرورين، وكان علي يمسك القفص كأنه يمسك كنزاً. حلّ الليل، ونام علي، ونامت زينب. لكن سمير بقي مستيقظاً، قلقاً، يدخن كثيراً، ويتحرك في الغرفة كطيف لا يهدأ. شعرت زينب أن زوجها ليس علي ما يرام. قامت من سريرها، جلست قربه، وسألته بصوتٍ خائف: ماذا بك؟ ما الذي يقلقك؟ صمت سمير قليلاً، ثم قال: أنا بين نارين. بين نار طلب علي، ونار البلبل في القفص. منذ اشتريته وأنا أفكر كيف يعيش في قفص، وأنا عشت هذا الشعور ثلاثين عاماً. أحسّت زينب أن الكلمات خرجت من جرح قديم. كان سمير لا يتحدث عن البلبل، بل عن نفسه. عن زنانة ضيقة، وعن نافذة عالية، وعن حرية كانت حلماً. سألتها: وما نتيجة تفكيرك؟ نظر إليها، ثم قال بهدوء: فتحت باب القفص، وأطلقت البلبل، ومنحته الحرية. بكت زينب. لم تبك لأن البلبل رحل، بل لأنها رأت في عيني زوجها ثلاثين سنة من الانتظار. رأت رجلاً خرج من السجن، لكنه لم يخرج من ذكراه. وحين فتح القفص، كان يفتح باباً لطفلٍ صغير، ولجرح كبير، ولنفسه التي ظلت تحلم بالسماء. في تلك الليلة، لم ينم سمير. وقف عند النافذة، ينظر إلى السماء، ويبتسم. في الصباح، سأل علي: أين البلبل؟ فأجاب سمير: طار إلى الحرية. قال علي: ولماذا؟ فربت سمير على رأسه، وقال: لأن الحرية أجمل من كل قفص، حتى لو كان القفص ذهباً. نظرت زينب إليه، وابتسمت بدموعها. فهمت أن سمير لم يحرر بلبلأ، بل حرر جزءاً من روحه. منذ ذلك اليوم، صار سمير ينظر إلى الطيور، كأنه يراها لأول مرة. وفي كل طائرٍ يطير، كان يرى وطناً صغيراً عاد إلى السماء.

لم يكن سمير رجلاً يحب الكلام عن نفسه، لكنه في تلك الليلة تحدث كثيراً. قال إنه في السجن كان يسمع صوت طيور بعيدة، وكان يتخيل أنها تحمل رسائل من العالم. كلما رأى طائراً، شعر أن هناك حياة خارج الجدران. لكنه لم يخبر أحداً بأنه كان يبكي أحياناً. كان يخفي دموعه كما يخفي جرحه.

في الصباح، عندما طار البلبل، شعر بخفة غريبة. كأنه أطلق سراح نفسه. نظر إلى علي، ورأى في عينيه دهشة الطفولة. قال له: يا علي، لا تحبس شيئاً يحب السماء. سأل علي: حتى لو كان يحبني؟ أجاب سمير: حتى لو كان يحبك، لأن الحب الحقيقي لا يقيد. صمت علي قليلاً، ثم ابتسم. كأنه فهم درساً أكبر من عمره.

أما زينب، فقد كانت تراقب المشهد. كانت تعرف أن سمير يحمل جرحاً لا يندمل. لكنها كانت تعرف أيضاً أن الجرح صار حكمة. وحكمة سمير لم تكن كتباً، بل قفصاً مفتوحاً

بعد أيام، عاد علي من المدرسة يحمل صورة بلبل. قال: أستاذتي قالت إن البلبل رمز الحرية. نظر سمير إلى الصورة طويلاً. البلبل لا يغني إلا وهو حر. ومن يبقى في قفصه، ينسى صوته. لهذا أطلقته. لم أرد أن ينسى البلبل صوته. ولم أرد أن أنسى صوتي أنا. فهمت زينب أن سمير لم يعد أسيراً فقط، بل صار معلماً للحرية. وفي كل ليلة، كان يفتح النافذة قبل النوم

عميدُ الأسرى لا يموت -4

ثلاثون عاماً في زنزانية لم تكسره، وثلاثة أشهر فقط كانت تفصل بينه وبين الشهادة. وكأنما القدر أراد أن يهمس للعالم قبل الرحيل: انظروا إليه جيداً، فهذا رجلٌ لن يتكرر

في تلك الأشهر الأخيرة، كتبت الصحف الإسرائيلية والمجلات والمواقع، بصوتٍ مرتجف، أن سمير القنطار يقود جماعاتٍ ضد إسرائيل. في غزة، في الضفة، في الجولان، وفي كل شبرٍ من أرض فلسطين المحتلة. كانوا يكتبون عنه كأنه شبحٌ لا ينام، كأنه يقظٌ في كل مكان، كأنه يسكن جسد كل مقاوم. لم يعرفوا أن سمير لم يكن بحاجةٍ لأن يقود، فقد صار فكرة. والفكرة لا تُقتل بغارة

حاولوا اغتياله أكثر من مرة. نجى. مرةً بعد مرة، كانت الطائرات تطارده، وكان يخرج من تحت الأنقاض كطائرٍ عنيد. لكن سمير كان يعلم أن الشهادة ليست نهاية، بل وعداً. وفي التاسع عشر من كانون الأول عام ألفين وخمسة عشر، جاء الوعد. غارة إسرائيلية استهدفت حياً سكنياً في جرمانا السورية. سقط الجسد، لكن الروح صعدت كما صعد البلبل الذي أطلقه لابنه علي

لم يستشهد سمير فقط

استشهد في حي سكني، بين أناسٍ أبرياء، في بلدٍ لم يكن بلده، لكنه كان يحمل قضيته. كان يمثل كل المقاومين الأحرار. كل الشهداء. كل حرٍ أبيٍّ في وجه الاحتلال. كان يمثل الأسرى في زنازينهم، الأمهات في انتظارهن، الأطفال الذين كبروا على صوت اسمه

في لبنان، خرجت الجنازة. تشييعٌ مهيبٌ لم تشهد مثله شوارع الضاحية الجنوبية. كانوا يسمونه عميد الأسرى، لكنه كان أكثر من ذلك. كان عميد الكرامة، عميد الصبر، عميد الحرية. حملوه على الأكتاف، والجماهير تتزاحم، والأيدي ترتفع، والدموع تختلط بالهتافات. لم يكن يوماً عادياً. كان يوماً يقول فيه الناس للعالم: هذا الرجل لا يموت

في المقدمة، رفرفت الأعلام. وفي القلوب، رفرف اسمه. سار النعش ببطء، كأن الزمن يرفض أن يمضي.

وقف الناس على جانبي الطريق، يرمقون الموكب بأعينٍ مبللة، ويتذكرون ثلاثين سنة من الجرح، وثمانية من الحرية، ورسالة واحدة لم تكتمل

سمير القنطار لم يكن رجلاً فقط. كان حكاية كل أسير عاد، وكل شهيدٍ مضى، وكل طفلٍ يحمل في قلبه وطناً. كان البلبل الذي فتح القفص، والرصاصة التي لم تصبه، والغارة التي أخذته. لكنه في النهاية، كان الرجل الذي قال للاحتلال: يمكنكم أن تأخذوا الجسد، لكن الفكرة تبقى

وفي جرمانا، حين سقط الجسد، صعدت الروح. صعدت كما يصعد البلبل. صعدت كما تصعد الحرية. وتركت وراءها أثراً في كل قلب عرف سمير، ودرساً في كل زنزانة، ووعداً في كل وطنٍ ينتظر

. عميد الأسرى مات، لكن اسمه لا يموت. لأن الشهداء لا يرحلون. يرحل الجسد، وتبقى الحكاية

الشهيد يحيى السنوار (ابو إبراهيم)

خبرٌ خفيٌّ في زنزانةٍ انفرادية -1

في زنزانةٍ انفرادية، حيث لا يسمع الإنسان إلا صوت قلبه، كان يحيى السنوار جالسًا. كان جسده منهكًا، لكن روحه معلقة في مكان أبعد من القضبان. كان له برنامج عبادي لا يتزحج: صلاة، وصيام، وذكر خفي. يقول تيسير سليمان، أحد مؤسسي كتائب القسام: كنا في سجون الاحتلال، وكان السنوار معنا في العزل. تمرض، فصار الدواء يجرح صيامه. قال له الطبيب: لا تستطيع أن تصوم وأنت تأخذ هذه الجرعات. فكان بعض الأيام يفطر، لكن قلبه لم يسترح. كان يشعر أن الصيام حبل رفيع يصل العبد بربه، فإذا انقطع بقي في صدره جوع غريب.

جاءني يومًا بصوت خافت، كأنه يخشى أن تسمعه الملائكة قبل البشر: «أريد أن أتصدق. أريد صائمًا أساهم في إفطاره»
قلت: في السجن؟ ومن ذا الذي يصوم هنا حتى نبحث له عن إفطار؟
«قال: «ابحثوا

فبدأنا ندور. ندور بين الزنازين، بين الوجوه المتعبة، بين من يستطيع الصيام ومن لا يستطيع. كنا نبحث عن صائم واحد، عن فم صامت حتى المغرب، لنضع في يده لقمة تكون صدقة خفية. لكن الأيام كانت ثقيلة، والمرض يزحف إلى العيون، وكثيرون لا يقدرّون على الصيام. كنا ندور... ندور... وأحيانًا لا نجد.

فماذا فعل السنوار؟

«جمع ما يملك، وقال: «إذن، لا أبحث عن صائم واحد. سأطعم خمسين خمسون شابًا. خمسون نفسًا تنتظر المغرب. خمسون معدًا خاوية. ومن ماله الشخصي، لا من مال أحد، كان يخرج الإفطار. كان يشتري، ويرتب، ويرسل. يدفع من قرشه الأخير، وهو يعلم أن الغد قد لا يأتي بشيء. لكنه لم يكن يريد أن يعرف أحد. كان يوصي: لا تخبروا أحدًا أنني فعلت. لا تذكروا اسمي

في الليل، حين ينام السجن على أنفاسه، كان يفتح عينيه ويفكر: كيف يصنع من العدم وليمة؟ كيف يحول العزل إلى بيت؟ كان يعد الأسماء في قلبه، كأنه يعد النجوم. خمسون رجلًا، كل واحد منهم قصة، وكل واحد منهم جوع. لم يسأل هل يستحقون؟ لم يقل هذا ليس وقتي. كان يقول: الوقت الآن، والجوع الآن، والخير لا ينتظر.

في زنزانة انفرادية، حيث يكون الإنسان وحيدًا حتى مع نفسه، كان يصنع موائد خفية. كان يطعم خمسين شابًا وقلبه يخفق كطائر في قفص. لم يكن يريد ثناءً، ولا شكرًا، ولا صورة. كان يريد أجرًا في السماء، وسترًا في الأرض.

كانت صدقته خفية. تمر بين الأيدي كهمة، ولا يعلم أحد من أين جاءت. يرى الشاب طعامه، فيقول: من أين هذا؟ فيقال: من رجل لا يريد أن يُعرف. فيأكل، ويدعو في سره لمن لا يعرف اسمه.

وهكذا كان السنوار. يصوم حين يستطيع، ويفطر حين يُجبر، ويطعم حين لا يجد. كان يعرف أن العطاء الحقيقي ليس أن تعطي وأنت تملك، بل أن تعطي وأنت محروم. أن تمنح الخبز وأنت جائع. أن تسقي غيرك وأنت في قلب الصحراء.

وفي النهاية، خرج من السجن. خرج ليواجه مصيرًا أكبر، لكنه بقي كما كان: رجلًا يحمل هم الناس في صمت، ويصنع الخير في الخفاء. حتى شهادته كانت خفاءً، كما كانت صدقته خفاءً.

تعلمت من تلك الأيام أن الصدقة الخفية لا تُرى، لكنها تُحدث في الروح ما لا تُحدثه الجبال. وأن الرجال العظام لا يقاسون بما يملكون، بل بما يمنحون وهم لا يملكون. وهكذا عاش السنوار: زاهدًا في الضوء، غنيًا بالعطاء، فقيرًا إلى الناس، قريبًا من الله. وكانت تلك أعظم درسٍ تعلمته في زناناتي.

صائد الجواسيس -2

في زاوية من غرفة ضيقة، حيث لا تضيء المصابيح إلا نصف الوجوه، جلس يحيى السنوار يكتب أسماءً على ورقة. لم تكن أسماءً عادية، كانت خيوطًا. كان قد أسس جهاز "مجد" ليكون عين الحركة وسيقفها في وجه من يبيعون الدم. كان يعرف أن الجاسوس لا يُرى في وجهه، بل في تفاصيل صغيرة يهملها.

كانت هناك تسريبات. عمليات تفشل قبل أن تبدأ. رجال يُعتقلون في منتصف الطريق. كان الجاسوس يعيش بينهم، يتنفس هواءهم، ويأكل من خبزهم.

جمع السنوار خمسة من رجاله، وقال:
"الجاسوس ليس شبحًا. الجاسوس إنسان. والإنسان له عادة. ابحثوا عن العادة، لا عن الوجه"

بدأ التحقيق الصامت. راقبوا كل رجل. من يتأخر؟ من يغيب عينيه؟ من يضحك في غير وقته؟ لكن كل شيء كان طبيعيًا. لهذا كان الجاسوس محترفًا.

ثم جاءت الفكرة. طلب السنوار من كل عضو أن يكتب رسالة إلى عائلته، رسالة شخصية، وقال لهم:
"اكتبوا ما تشاءون، لكن لا تسلموها لي. احتفظوا بها"

في اليوم التالي، حدث "خطأ" مقصود. تسربت معلومة كاذبة عن عملية وهمية في مكان بعيد. وقال السنوار لرجاله الخمسة: "هذه العملية سرّية. لا يخرج أحد من البيت حتى إشعار آخر"

ثم انتظر.

في الليلة الثالثة، جاءه أحد رجاله يقول: "الرجل الفلاني خرج من منزله في منتصف الليل وعاد بعد ساعة."

"سأل السنوار: "وهل كتب رسالة لعائلته؟"

"قال: "نعم"

"قال: "أحضرها"

فتح السنوار الرسالة. كانت مليئة بالكلمات الجميلة، لكنها كانت باردة. كانت رسالة رجل يكتب ليتخلص من الشك، لا رجل يكتب لأنه يحب. وفي أسفل الورقة، كانت هناك نقطة حبر صغيرة، كأن الورقة قد ضُغِطت بين أوراق أخرى، ثم نُقلت.

قال السنوار بهدوء:

هذا الرجل لم يكتب رسالته للعائلة. كتبها لي. ومن يكتب رسالة لي، يريد أن يثبت أنه بريء. والبريء "لا يحتاج أن يثبت"

في الصباح، جاؤوا بالرجل. لم ينكر طويلاً. انهار كجدار قديم. اعترف أنه كان ينقل الأخبار مقابل المال. "وحين سُئل كيف اكتشفوه، قال: "لم أخطئ في شيء... إلا أنني حاولت أن أبدو بريئاً أكثر من اللازم"

نظر السنوار إليه طويلاً، ثم قال:

"مجد لا يرى الجاسوس. مجد يرى الخوف في عينيه. وأنت كنت خائفاً من أول يوم"

وخرج الرجل من الغرفة. لم يخرج ليقتل، بل ليحاكم. لكنه خرج من التاريخ. وبقي "مجد" ظلًا لا يُرى، وعينًا لا تنام، ودرسًا لكل من يفكر أن يبيع دماً في سوق الخونة

ظل في ركام غزّة -3

في فجر من أكتوبر، حيث تتنفس غزّة رمادًا وتحتسي دمًا، خرج من بين الأنقاض كظلّ لا يريد أن يُرى. كانت تل السلطان تسبح في ضباب من غبارٍ وحديدٍ محترق. مضى يحيى السنوار وحيداً، يحمل البندقية وذكرة شعب كامل. كان الركام يتحدث إليه، والحجارة تهمس بأسماء من رحلوا. كان يتجول. كمن يبحث عن شيء ضائع، لكنه في الحقيقة كان يبحث عن الشهادة

كان يمشي بين البيوت المهدمة كأنه يعرفها واحدةً واحدةً. هناك كان بيت، هناك كان طفل يلعب، هنا كانت امرأة تخبز، هناك كان رجل يزرع. والآن، كل شيء كومة من غبار. كان يتقدم بحذر، عيناه تلتقطان كل حركة، وأذناه تصغيان لكل صوت. كان يعرف أن العدو يبحث عنه، لكنه لم يكن يهرب. كان يصطاد.

في أحد الأيام، اقترب من موقع للاحتلال. رأى جنديًا، ثم آخر. لم يتردد. أطلق النار، ثم انسحب كالريح. كان يعرف أن كل رصاصة هي رسالة: أنا هنا، ولم أرحل. كان يضرب ثم يختفي، كأنه شبح يلعب مع الموت.

لكن الموت كان قد بدأ يلاحقه. في صباح السادس عشر من أكتوبر، كانت السماء رمادية كقلب متعب. كان السنوار في بيت في تل السلطان. كان يعرف أن هذه اللحظة قد تكون الأخيرة. صلى، ثم اشتبك مع العدو وأثقل بالجراح، ثم جلس ينتظر. لم يكن خائفًا. كان يعرف أن الطريق انتهى، وأن ما بعد الطريق أجمل.

سمع أصوات الجنود تقترب. أخذ بندقيته، ووقف. كان الاشتباك قريب، والموت أقرب. اقتحم الجنود البيت. اشتباك مباشر. رصاص يتطاير، وحجارة تتساقط، وصرخات تملأ المكان. كان السنوار يقاتل كأنه جيش، لا كرجل واحد. أطلق النار حتى نفدت ذخيرته، ثم قاتل بما تبقى من قوته.

سقط على الأرض، لكنه لم يسقط في قلبه. كانت عيناه مفتوحتين، تنظران إلى السماء. رأى فيها كل شيء: غزّة، والأطفال، والمسجد الأقصى، والقدس، وكل من رحل. ابتسم. لم يكن الابتسام فرحًا بالرحيل، بل فرحًا بأنه لم يخن، ولم يتراجع، ولم يبع.

بعد أن تأكد العدو من خلال الدرون أنه مصاب، قرروا أن يفجروا المنزل، بعدها جاء الجنود واقتربوا منه. شاهدوه جبلاً ارتفع لرب السماء. نظروا إلى وجهه، فوجدوا هدوءًا غريبًا. كان وجهه كوجه من رأى شيئًا جميلًا للتو. صوّروه. أخذوا جسده. لكنهم لم يأخذوا ما في عينيه.

في تلك اللحظة، كانت غزّة تنتحب. كانت الريح تحمل خبرًا ثقيلًا. في كل زاوية، كان الناس يهمسون: "استشهد السنوار." وكل همسة كانت سكينًا في القلب، لكنها أيضًا كانت جمرة في الروح.

في بيته، كانت زوجته تعرف. كانت تنتظر هذا اليوم منذ زمن. لم تبك بصوت عالٍ، بل بكت في صمت، كما عاشت في صمت. كانت تعرف أن الرجال الذين يعيشون في الظل يموتون في النور.

وفي اليوم التالي، خرج الأطفال، والنساء، والشيوخ. رفعوا الصور، ورفعوا الأعلام، ورفعوا أصواتهم. لم يكونوا يودعون رجلاً، بل كانوا يودعون رمزًا. قالوا: "السنوار لم يمت. السنوار فكرة." والفكرة لا تموت.

وفي تل السلطان، حيث سقط، بقيت قطرة دم على حجر. جاءت الريح لتمسحها، لكنها لم تستطع.
بقي الأثر. وبقي الظلّ. وبقيت الحكاية تنتقل من فم إلى فم، من جيل إلى جيل

وهكذا رحل يحيى السنوار. لم يرحل كرجل مهزوم، بل كرجل انتصر. انتصر لأنه لم يستسلم. انتصر
لأنه قاتل حتى آخر رصاصة. انتصر لأنه عاش في الظلّ ومات في النور. وبقيت غزّة، وبقي الأقصى، وبقي
الطريق.

الخاتمة

كل الشكر والتقدير لعوائل الشهداء وأصدقاء الشهداء
كل الشكر والامتنان لعائلة الشهيد القائد ابو تقوى السعدي
كل الشكر والامتنان لعائلة الشهيد القائد ابو باقر الساعدي

كل الشكر والامتنان لعائلة الشهيد القائد حسين العقابي (هوار) وأخيه الدكتور حسن العقابي
كل الشكر والامتنان للإعلامي الحربي السيد مرتضى الموسوي
كل الشكر والامتنان للإعلامي الحربي الدكتور منتظر الشرع
كل الشكر والامتنان للإعلامي والمصور الحربي البارون العراقي
كل الشكر والامتنان للإعلامية زينب برجاي زوجة الشهيد سمير القنطار
كل الشكر والامتنان لموقع قناة الميادين الإخباري
كل الشكر والامتنان لموقع السيد علي الخامنئي
كل الشكر والامتنان لموقع الشهيد الحاج قاسم سليمان
كل الشكر والامتنان لمركز وثائق الثورة الإسلامية
كل الشكر والامتنان إلى قسم العلاقات العامة في مكتب السيد الشهيد الامام القائد علي الخامنئي
كل الشكر والامتنان لقناة المنار الفضائية
كل الشكر والامتنان الحاج ابو محمد الساعدي شقيق الشهيد ابو باقر الساعدي
كل الشكر والامتنان للأديب والشيخ علاء المسعودي
كل الشكر والامتنان لعائلتي واصدقائي وكل من ساهم في كتابت هذه القصص الحقيقية عن الشهداء
اسأل الله العلي العظيم ان انال شفاعة الشهداء يوم الورود وين يثبتوا لي قدم صدق عن مولاي وقاندي
صاحب العصر والزمان

الصغير امام تضحيات الشهداء
الميرزا علي المسعودي

"إلى اللقاء مع انتصار الدم على السيف، إلى اللقاء في الشهادة، إلى اللقاء في جوار الأحبة"